الكتاب الثانى

قراءة جديدة
فى رسالة الغفران
نص مسرحى من القرن الخامس الهجرى

فى زيارتى العلمية لجامعة الخرطوم خريف سنة ١٩٦٩م دعانى قسم اللغة العربية بها لأحاضر طلاب الامتياز فى (رسالة الغفران) المقررة عليهم فى دراستى النقدية لها على النص الذى حققته من الرسالة – طبعات الذخائر – وكرهت وقتئذ أن أُلِىَ الطلاب بما قدمته فى دراستى للغفران ، لدرجة الدكتوراه فى الآداب قبل نحو من عشرين عاما ، فطلبت إلى الجامعة إعارتى النص المحقق للغفران ، حيث عكفت عليه لليلة واحدة ، لم تتسع لأكثر من إمعان النظر فى مقدمة الرسالة ، وكان فى نفسى شىء منها .. فكشفتْ لى عن رؤية جديدة حاضرت بها طلاب جامعة الخرطوم ، ثم تابعتها فى محاضراتى طلاب معهد الدراسات والبحوث العربية العالية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، وطبعها المعهد فى سنة ١٣٩٠هـ – ١٩٨٠م . وتأخذ موضعها هنا ، ذيلا لهذه الطبعة الجديدة من دراستى للغفران .

« وعلى الله قصد السبيل »

تمهيد

قضية منهج وتراث :

قضايا وجودنا المعاصر ، هى ما ينبغى أن نشغل به .

وسُنَّة الحياة ، تفرض ألا نتناول أى موضوع من تاريخنا الفكرى أو الأدبى ، إلا من حيث يبدو ذا صلة مباشرة بحياتنا اليوم .

وذلك ما لم يغب عنى وأنا أختار مسرحية الغفران ، — وأعُدّها مسرحية بشىء من التجوز — لتكون موضوع محاضراتى لهذا الموسم .

والمسرحية قديمة عتيقة ، يفصلها عن زماننا نحو من عشرة قرون ، فعلى أى وجهٍ يمكن أن تتصل بوجودنا الأدبى المعاصر ؟ .

ومن أى سبيل تأخذ مكانها بين مانشغل به من قضايا اليوم ؟ .

ظاهر الأمر فى هذه الصلة ، هو أن الأدب المسرحى فيما نعرف ، أحدث فنون الأدب العربى . وأى حديث فيه ، لا يكون بعيدًا عن أدبنا المعاصر ، منعزلا عن وجودنا الحاضر .

ولكن وراء هذه الصلة القريبة بين موضوعنا وبين أدبنا الحديث ، قضية أقوى اتصالا بوجودنا العلمى والقومى ، اليوم وغدا .

إنها قضية منهج :

يؤمن بأنه ما من علم يمكن أن يقال فيه إنه قد نضج واحترق ، أو أن باب النظر فيه أغلق فما عاد ينتظر جديدا فيه .

وما من موضوع سبقتْ دراسته على أى مستوى ، يمكن أن يُدّعى له أن الكلمة الأخيرة قيلت فيه .

وإنما هى مراحل على الطريق .

وما تحسبه كل مرحلة خطّ النهاية وغاية المسعى ، ليس فى حساب الحياة والعلم إلا خطوة على طريق المعرفة ، تبدأ من حيث انتهت سابقتها منتفعة بكل ما وصلت إليه . ولا يغض من قيمة جهدِ سلَفَ ، أن يظهر بعده ما يضاف إليه أو يعدله ، أو ينسخه ويلغيه ، بل تبقى لجهود الباحثين على تتابع الأجيال قيمتها العلمية فى تاريخ المعرفة من حيث سارت خطوتها وأعطت رصيد خبرتها وتجاربها ، زادًا لمن يتابعون السير على الدرب .

وإذ أقدم اليوم جديدا من رسالة الغفران ، أراه يجدى على المنهج ، بما يرسخ من إيماننا بامتداد آفاق البحث ، فى موضوع ظننت وظن سواى ، أنه قد قُتل درسا وبحثا ، و« قطعت جهيزةُ فيه قول كل خطيب » على ما يقول المثل العربى .

لقد توارد على رسالة الغفران دارسون ذوو عددٍ من غرب وشرق ، ولا أعلم نصا أدبيا من تراثنا الأدبى ظفر بمثل ما ظفرت به من شهرة وعناية .

فى آخر القرن الماضى ، كان المستشرق الإنجليزى « نيكلسون » يقدمها إلى العالم الغربى ، فى « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » .

وفى سنة ١٩١٧ ، كان المستشرق الأسبانى « القس ميجيل أسين بلاثيوس » يهز العالم الأدبى فى أوربا ، بنظريته فى أخذ « دانتى » كوميدياه الإلهية من أصول عربية ، فى مقدمتها قصةُ المعراج ورسالة الغفران . تلك النظرية التى شغلت دارسى الأدب المقارن فى عصره ، وأحدثت فى الغرب دويًّا وصل صداه إلينا فلَفت الدارسين العربَ إلى هذه الرسالة ، ومن ثَم أخذتْ مكانها بين النصوص الأدبية التى يدرسها طلاب الآداب من جيلنا .

ولقد كنت من بين الطلاب الذين قرءوها – فى طبعة غير محققة – على الأستاذ الدكتور طه حسين فى كلية الآداب . ثم اشتغلت بها موضوعا لرسالة الدكتوراه ، بعد أن تفرغتُ لتحقيق نصها سبعَ سنين دأبا . ونُشِر النص الذى حققتهُ لها فى ثمانى طبعات للذخائر ، من سنة ١٩٥٠ ، حتى عامنا هذا ، فضلاً عن طبعتين مزورتين ظهرتا فى بيروت[1] ، نقلاً عن نصِّها المحقق فى الذخائر .

ثم إنى تابعتُ الاشتغال بدراسة الغفران ، فى محاضراتى بالجامعة ، ونُشرت هذه الدراسة فى ثلاث طبعات لدار المعارف بالقاهرة . كما نشر الأستاذ الدكتور « أمجد الطرابلسى » كتابا عن (النقد واللغة فى رسالة الغفران) – طبع دمشق – فضلاً عن بحوث ومقالات جديدة ، نُشرت ضمنا فيما تلقت المكتبةُ العربية من مؤلفات ودراسات عن « أبى العلاء » أو تاريخ النثر العربى بوجه عام .

ومع كل هذا الرواج والاهتمام ، لم ألتفت فيما مضى ، ولا التفت أحدٌ سواى فيما أعلم ، إلى أن بين أيدينا نصًّا مسرحيًّا فريدًا لا نعلم له سابقة فى تراث العربية .

وحين أنظر اليوم إلى دراستى المتخصصة للغفران ، كما قدَّمتها إلى الجامعة منذ عشرين عاما ، أعجب كيف فاتنى هذا النص المسرحى فيها ، وكيف فات الدَّارسين معى ، فمضوا ومضيتُ ، نبحث لها عن مكانٍ بين فنون الأدب العربى ، ونعرضها على المقامات والقصص والأمالى ، وعلى الرسائل الإخوانية الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة .

دون أن يخطر على البال أى صلة لها بالفن التمثيلى ! .

ثم هى قضية تراث وتاريخ :

فمن المقررات الراسخة فينا ، أن أدبنا لم يعرف الأدب المسرحى قبل العصر الحديث . والذين يؤرخون لهذا الفن المستحدث ، مهما يوغلوا فى التماس بوادره الأولى عندنا ، فليسوا بحيث

(١) من دار صادر ببيروت ، سنة ١٩٦٤ ، ثم من دار إحياء التراث العربى فى بيروت ، ١٩٦٨ .

يمضون إلى أبعد من « خيال الظل » فى الماضى القريب . ثم يسارعون فيمدون أبصارهم إلى أوربا ، بحثًا عمَّا استوردنا من أدبها المسرحى ، الغربى الحديث واليونانى القديم .

فحين نقدم إليهم اليوم نصا عربيا ، من تراث القرن الخامس الهجرى ، فليست المسألة عندى مجرد إضافة جديدة إلى أصيل تراثنا فى هذا الفن ، ولا هى مجرد تصحيح لخطأ تاريخى ، وأنما المسألة الجوهرية فى تقديرى ، هى أننا بتقديم مسرحية الغفران ، نلفت إلى ظاهرة غير صحية فى حياتنا الفكرية المعاصرة . وهى أننا قلما نشغل بمراجعة تراثنا ، حيثما لاحت لنا بادرة الأخذ والاستيراد من الغرب . قلما نتمهل لنسأل عن عطاء ماضينا ، قبل أن نبادر فنحكم عليه بالجدب والإفلاس والعقم .

ونجهل قيمة تراثنا وسخىَّ عطائه ، إما عن فتنة بالغرب ترهقنا بعقدة النقص .

وإما عن مفهوم فج للمعاصرة ، لا يرى جدوى من الارتباط بالسلف ، والنظر فى تراث عصور خلت ، بل يُعدُّه أكفانَ موتى يفسد ريحها مناخ العصر . ثم لا يرى بأسا فى أن يشغلنا بتراث الغرب ، بل يعده منحة حيوية ، تحث خطانا إلى عصر القمر ! .

ويهون علينا التفريط فى وعى ماضينا العريق الذى يمنحنا عزَّ الأصالة وشموخَ العراقة وشرف الانتماء .

* * *

الوثيقة التى نقدمها اليوم فى مشاهد نختارها نموذجًا ومثالا ، ليست مأخوذة من (رسالة الغفران) على وجه الاقتباس أو التصرف ، بل نعرضها بنصها في الغفران . وعملُنا فيها يقتصر على تقديمها فى النسق المألوف لكتابة النصوص المسرحية ، دون أى مساسٍ بصياغة المؤلف لفظًا وسياقًا وحوارًا ، ودون أى تدخل منا فى إعداده وإخراجه .

حرصًا منَّا على أصالة النص ، وصيانة لقيمته من حيث هو وثيقة تاريخية فى أدبنا العربى .

وما أبيح لنفسى حق الحكم على بناء العمل المسرحى فى الغفران ، أو مايعرف فى مصطلح اليوم « بالتكنيك المسرحى » ، ولست من أهل التخصص فيه .

وقد يرى بعض المتخصصين أن الأمر فى الغفران لا يعدو أن يكون مشاهد متتابعة ، صيغت على هذا النمط التمثيلى لتؤدى ما أراد أبو العلاء أن يقدمه من أمالية اللغوية ، وآرائه فى القضايا الأدبية والنقدية التى كانت تشغل عصره .

وقد يرى آخرون منهم ، أن ليس من الضرورى عرضُ نص مسرحى من تراث القرن الخامس الهجرى ، على القواعد التقليدية للتكنيك المسرحى ، ويكفيكهم منه تشخيص الإخراج وسياق الحوار وفنية الرمز ، ثم لا يشق عليهم أن يلمحوا « عقدة الغفران » فى المعادلة الصعبة بين زهد مؤلفها وشهوانية بطلها ، أو فى التورية الدقيقة لسخرية أبى العلاء بابن القارح ، فى هذا الدور

العجيب الذى اختاره له وفرضه عليه ، على وجه التمنى والرجاء ، من صديق يطمع له فى حسن المآب ونعيم الآخرة .

أو لعل عقدتها فى المأزق الحرج ، الذى يجعل تصور أبى العلاء لعالمه الآخر مظنة التباس الحياة الآخرة في العقيدة الدينية .

وهم يعرفون أن من كتاب المسرح الحديث ، من يتمردون على جمود القواعد التقليدية ، ويقررون أن الرؤى الفنية أرحب من أن تُصب وتُضغط فى قوالب محددة ، وأن أصالة الفن تعطى الأديب حرية التصرف وحق اختيار الأسلوب الذى يعبر به عن رؤيته الوجدانية لعالمه .

وعلى أىٍّ وجه أخذها هؤلاء ، أو هؤلاء ، فليست بحيث لا تقوم مع « خيال الظل » الذى لم ينسوه فى تاريخ هذا الفن .

وقُصارى ما يعنينى هنا من القضية ، هو أن أقدِّم إلى تاريخنا الأدبى هذه الوثيقة لمحاولة الغفران الرائدة ، تصحيحًا للشائع المعروف من حداثة عهدنا بالأدب المسرحى ، ولَفْتًا إلى ما لايزال محجوبًا عنا من عطاء تراثنا .

* * *

هذه القراءة :

الجديدة للغفران ، مصدرة فى طبعتها المستقلة لمعهد الدراسات العربية ، بمدخل إليها عن أبى العلاء ورسالته ، وابن القارح ورسالته .

وإذ ألحقنا القراءة الجديدة بطبعتنا هذه للغفران ، آثارنا نقل المدخل من موضعه هنا إلى مستهل هذه الطبعة الجامعة للدراسة كتابا أول ، والقراءة الجديدة كتابا ثانيا .

ولا غنى هنا عن الرجوع إلى المدخل فى موضعه صدر هذه الطبعة الجامعة ، مع ضرورة استصحاب النص المحقق لرسالة الغفران ومعه النص المحقق لرسالة ابن القارح ، فى طبعات الذخائر ، حيث البيان لسياق النقول منهما ، وشرح الغريب من ألفاظ المتنين ، وتخريج الشواهد والتعريف بالأعلام ، والله المستعان .

رسالة الغفران ، وفيها النص المسرحى الذى نقدمه اليوم ، أملاها أبو العلاء بمعرة النعمان ، حوالى عام ٤٢٤ هـ . ردًّا على رسالة تلقاها من أديب حلبى من معاصريه ، هو « ابن القارح ، على بن منصور » .

وقد مَضَى علينا زمان وهى تأخذ صورةَ رسالةٍ إخوانية من الرسائل الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة .

لكنها تستهل بمقدمة غير مألوفة ، يستطرد منها أبو العلاء ، إلى رحلة خيالية فى العالم الآخر ، يقود إليها ابن القارح ، ويوجِّه فيها خطاه بين الجنة والمحشر والجحيم ، ويلقنه ما يقول وما يفعل ، قبل أن يبدأ ، بعد هذه الرحلة الطويلة ، فى الرد على ما جاء فى رسالة ابن القارح ، ابتداء من فقرتها الأولى بعد تحية الديباجة ، إلى آخر سطر من سطورها .

* * *

ورسالة الغفران ، من تراث أبي العلاء فى عهد عزلته ، فى صميم الشطر الثانى من رحلة حياته ، وكان يستهل حينذاك ، العقد السابع من عمره .

أى أنه أملاها بعد أن هُزم فى معركته مع الدنيا ، وانطوى على نفسه محزونًا يلتمس راحة اليأس فتعز عليه مثلما عزّت عليه راحة الأمل .

وقد أنضجتْه الأيام بتجاربها ومِحَنها ، وكشفت عن أشواقَ بشريته المَوْءُودَة ، وجراحه التى لم تندمل قط .

وببلوغه ستين سنة ، كان قد قطع مراحل حياته الدنيا وأرف على العالم الآخر ، وطال تأمله الحزين فى مصير الإنسان .

ومن هذا التأمل الطويل ، كانت رحلتُه إلى عالم آخر صنعته له رؤاه وأحلامُه ، ومخاوفه وهواجسه ومواجعه ومواجده ..

وفيها عَرَّى جراحة الغائرة ، ونفَّس عن أشواقه المكبوتة ، وهواجسه الملحة .

غير أن عالمه النفسى كان متأثرًا كذلك بموقفه من الدنيا والناس ، ورأيه فى « ابن القارح » الذى أعطاه أبو العلاء الدور الرئيسى فى مسرح الغفران ، فأطَلَّ بنا عن طريقه ، على عالمه الآخر ، وملءُ نفسه تعبٌ من هذه الدنيا « رسخ فى الأعضاء » ، وظمأ لم يجد سبيلا إلى رِى ، ورؤيةٌ ثاقبة لما تخفى أقنعةُ النفاق من خُبث ومكر وقبح .

* * *

ورسالة الغفران لا سبيل إلى فهمها دون تدبر لرسالة ابن القارح التى نعدها مفتاح هذا الفهم ، إذ هى السبب القريب المباشر الذى دعا أبا العلاء إلى إملاء رسالته ، فغير مُتَصوَّر أن نمضى فى قراءتها ، ما لم نقرأ قبلها ومعها ، الرسالة التى كان يُملى ردَّه عليها .

ويتبادر إلى الظن ، أن حاجتَنا إلى « رسالة ابن القارح » ، لا تبدو مُلِحَّة فى القسم الأول من الغفران حيث الرحلة إلى العالم الآخر ، بل يمكن أن ننتظر حتى نفرغ من هذه الرحلة ، ويبدأ أبو العلاء – فى القسم الثانى من الغفران – الردّ على ما جاء فى الرسالة التى تلقاها ، وأملى رسالة الغفران جوابًا عنها .

لكن الذى لا شك فيه ، هو أن ظِلّ ابن القارح كان يغشى العالم الوجدانى لأبى العلاء منذ تأهب لإملاء رسالة الغفران ، وأن صورة الرجل ظلّت ماثلة فى خاطره ، حتى فرغ من الإملاء .

ثم إن النص المسرحى ، الذى يشغلنا هنا ، يقع فى المقدمة والرحلة إلى العالم الآخر فى القسم الأول من الغفران . وابنُ القارح يمثل الدور الرئيسى بطلاً للمسرحية من أول مشهد إلى آخر مشهد .

* * *

والمعادلة الصعبة فى مسرحية الغفران – ولعلها عقدتها – هى أن تعبر عن شخصية مؤلفها ، وأن تلائم فى الوقت نفسه شخصية بطلها كما تمثلها ومثلها .

والشخصيتان على طرفى نقيض : سَمْتًا وسجية ، وحياة وخلقًا وسلوكا .

وأصعب منها ، أن نميز فى الغفران ما هو من ملامح شخصية أبى العلاء بمحض نبله وعفته وصدقه ، وحرمانه ومجاهدته .

وما هو من ملامح شخصية ابن القارح ، بكل شهوانيته ونفاقه وخبثه وزيفه ...

* * *

فى هذه المسرحية ، يطل أبو العلاء من الدنيا على أخراه ، ويغذُّ السير بتأملاته إلى عالم بعيد يُفرغ فيه شحنة همومه وأشواقه ، وهواجسه ومخاوفه .

وواضحٌ أن عالمه الآخر ، لا يمكن إلا أن يكون عالم أديب شاعر لغوى مفكر ناقد .. وأن أشواق بشريته ، قد التمست تنفيسًا وريًّا ، فى رؤياه لعالمه الآخر .

وأن القيود التى شلَّت حركته نصف قرن ، جعلته يحلم بكسرها والتحرر منها ، فملأ جنته بالحركة والصوت والرقص والغناء ، وقد تعنف الحركة فتصير ضجيجًا وعراكا وعربدة ، ويعلو الصوتُ فيصير صياحًا ومنافرة وجلبة .

ومن أهل جنته من يخرج للنزهة والصيد والزيارة ، وفيها تقام المآدب الحافلة ، وأبو العلاء الذى ملّ السكون وتعب من الكبْت ، هو الذى يريد لأهل عالمه الآخر أن ينفعلوا بالغضب والرضى ، والصدّ والإقبال ، والمتعة والخيبة ، وأن تجوز عليهم أهواء البشرية وأعراضها ، من تشوُّف وحنين وعجب ، وغرور وعقوق وشماتة ، ونسيان وغفلة .

ولا شك فى أن محنته هى التى اقترحت عليه « عملية التعويض » فى الآخرة عن محن الدنيا ، فليس يكفيه أن يصير الأعشى أَحْوَرَ ، والأعمى بصيرًا ، والهرم شابًّا ، وإنما يُعوض الذى امتحن فى الدنيا بعاهةٍ أو بلوى ، تعويضًا لا يقترح مثله سوى ضرير مبتلى محروم : فأَحَدُّ أهل الجنة بصرًا هم الذين حُرموا نعمة البصر فى الدنيا . وأجملهم عيونًا « عورانُ قيس » . وأطيب نسائها نشْرًا ، امرأة كانت فى الدنيا تدعى « حمدونة الحلبية » ، طلّقها زوجها – بائع السقط – لرائحة كرهها من فمها . وأنصعهن بياضًا أَمَة تدعى « توفيق السوداء » كانت تخدم فى دار العلم ببغداد ...

وذلك كله لأبى العلاء ..

* * *

وأما إسرافه فى حشد المتع الحسية وتشخيص الشهوات واللذات المادية ، فإلى جانب دلالته

على نفسية المحروم وأثر القيود التى فرضها على نفسه فى صومه الطويل ، نُقدّر أن شهوانية ابن القارح هى التى وجّهت أبا العلاء إلى أن يحشد له ما يعلم أنه يُرضى مزاجه ويلائم هواه ...

ومن المَلاَحِظ اللافتة ، أن أبا العلاء فى تمثّله لعالمه الآخر وإحضاره إياه ، قد صرف عن مسرح الغفران شخوص أحبابه الذين تعلق بهم فى حياته وأنِس إليهم ، وحزن لفراق الذين سبقوه منهم إلى القبور .

فهل شُغل عن رؤيا لقائهم ، بأماليه اللغوية والأدبية التى بقيت مشغلة دنياه وأخراه ؟ ..

أو إنه بتنحّيه لابن القارح عن مسرح الغفران ، لم يجد لشخوص أحبابه مكانًا عليه ؟

الذى أطمئن إليه ، هو أن أبا العلاء حين جعل مسرح الغفران لابن القارح ، نحى عنه من لا شأن لهم به . ولعله ضنَّ على أهله الصالحين بالظهور على مسرح أعَدّه لهذا الثعبان الأسود ، يعطيك من ملمسه اللين نعومة الحرير ، وفى لعابه السمُّ الزعاف .

بطاقة ابن القارح عند أبى العلاء :

وإذا كنا فى (المدخل) إلى هذه الطبعة الجديدة من الغفران ، قد أطلنا الحديث عن مؤلفها ، فالأمر بالنسبة إلى بطلها مختلف : فليس يعنينا هنا أن نستوعب ترجمة حياة ابن القارح ونستقصى أقوال مؤرخيه فيه ، بقدر ما يعنينا أن نعرف موقف أبى العلاء منه ورأيه فيه ، إذ مهما تكن حقيقة ابن القارح ، وصورته فى كتب التراجم ، فالمهم أن نعرف ملامح الصورة التى كانت ماثلة فى خاطر أبى العلاء ، وهو يقدم بطل مسرحيته ، ويختار له الدور الذى يلائم شخصيته ، ويفرضه عليه من حيث لم يتوقع .

يكفى أن نعرف أن « ابن القارح : على بن منصور الحلبى » أديب معاصر لأبى العلاء . وينسب إلى حلب بحكم مولده . على أنه نزح منها مطوفا بالبلاد يلتمس رزقه من حرفة الأدب . وقد خدم « أبا على الفارسى » بالشام ودرس عليه اللغة ، ثم انقطع إلى خدمة « آل المغربى » فى القاهرة ، حين كانت لهم القيادةُ والرياسة والوزارة فى الدولة الفاطمية . وبقى فى خدمتهم إلى أن غدر بهم « الحاكم بأمر الله الفاطمى » . فجحدهم ابن القارح ، وتسلط عليهم بأفحش الهجاء .

وكان « ابن القارح » بإقراره فى رسالته قد أسرف على نفسه فى الملذات ، فلما جاوز السبعين من عمره ، وهنت قواه ، وقرر أن يثوب إلى حلب التماسا للاستقرار والراحة فى شيخوخته العالية .

وفى هذا الوقت بالتحديد ، بدا له أن يمهد لمقامه فى حلب ، بالكتابة إلى أديبها الأكبر وعالمها الحكيم .

* * *

والثابت تاريخيًا ، أنه لم يكن بين أبى العلاء وابن القارح ، سبقُ تعارفٍ شخصى أو لقاء ، قبل أن يتبادلا رسالتيهما .

وكلتا الرسالتين ، تأخذ شكل الرسائل الإخوانية الطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة .

والعهدُ بمثل هذه الرسائل الإخوانية الطوال أن تكون بين من تربطهم أواصرُ مودةٍ وصحبة ، والذى بين أبى العلاء وابن القارح ، يبدأ أول ما يبدأ بهاتين الرسالتين المطولتين .

ونعرف من رسالة ابن القارح ، أنه أراد بها أن يعتذر إلى أبى العلاء ، عن ضياع رسالة كان أحد أدباء العصر « أبو الفرج الزهرجى » قد أرسلها إليه مع ابن القارح لمّا علم أنه فى طريقه إلى حلب ، فسرق عديلُ له ، رَحْلا من رحاله ، الرسالة فيه .

ونعرف أيضًا أنه قصد بالكتابة إلى أبى العلاء ، أن يبرر له موقفه من « أبى القاسم بن المغربى » حين بلغه أن أبا العلاء ذكر هجاءه إياه .

* * *

ونفهم أن يحرص ابن القارح ، على أن يزكى نفسه لدى حكيم المعرة وأديب حلب وعالم الشام ، فيطيل فى سرد محفوظه من اللغة والأخبار والشعر ، والإعلان عن براعته ، والتعريف بحياته ورحلاته وشيوخه .

وقد نفهم أيضًا أن يجاريه أبو العلاء فيبهره بأماليه اللغوية والأدبية ، ويستدرك فى الرد عليه ، ما فاته فيما عرض له فى رسالته إلى أبى العلاء من قضايا تاريخية ومذهبية ، ونقدية وأدبية . لكن الغريب حقا ، هو هذه المقدمة غير المألوفة التى افتتح بها أبو العلاء رسالته إلى ابن القارح ، والرحلة العجيبة التى قاده فيها إلى العالم الآخر ، وفرض عليه دور البطولة على مسرح الغفران ، قبل أن يبدأ فى الرد على أولى فقرات رسالته !

ولا نذكر فيما قرأنا لأبى العلاء ، على طول صحبتنا له فى آثاره ، ما يشير إلى ابن القارح من قريب أو بعيد ، وإنما يأتى ذكرُه لأول مرة على لسان أبى العلاء ، فيما نقل ابن القارح نفسه فى رسالته حيث يقول :

« بلغنى عن مولاى الشيخ أدام الله تأييده ، أنه قال وقد ذُكِرت له : « أعرفه خبرا : هذا الذى هجا أبا القاسم ، على بن الحسين المغربى » فذلك منه – أدام الله عزه – رائع لى ، خوفا من أن يستشرَّ طبعى ، وأن يتصورنى بصورة من يضع الكفر موضع الشكر »[1] .

ومنها نعلم أن ابن القارح جاء ذكره فى مجلس أبى العلاء ، فما زاد على أن قال : « أعرفه خبرا – أى سماعًا : هذا الذى هجا أبا القاسم المغربى » .

(١) راجع فى ذلك ، ما قدمته من حديثه فى الحب فى كتابى : « أبو العلاء المعرى فى رحلته حياته ، سيرة ذاتية » أعلام العرب .

فماذا تعنى هذه العبارة التى اختارها أبو العلاء عنوانا على شخصية ابن القارح وصفة مميزة لصورته عنده ، فاكتفى بها فى التعريف به ؟

إنها تعنى بإيجاز : الشر والعقوق ، والغدر والنفاق ! فأبو القاسم ، هو الحسين بن على بن الحسين ، الوزير الأديب الملقب بالكمال ذى الرياستين : الوزارة والكتابة .

وأبوه : « أبو الحسن على ، بن أبى عبد الله الحسين بن جوهر » قائد القواد فى جيش الحاكم الفاطمى .

وجدُّ الأسرة : « جوهر الصقلى » فاتح مصر وبانى القاهرة وجامعها الأزهر ، ومقيم الدعوة بالديار المصرية للعبيديين الذين حكموا باسم الفاطميين .

وقد عاش ابن القارح محسوبا على آل المغربى حين كانت الدنيا لهم ، يتقلب فى نعمتهم ويشدو بفضلهم ومآثرهم . فلما دارت الدائرة عليهم وقتل « الحاكم الفاطمى » قائدَه أبا عبد الله الحسين بن جوهر سنة ٤٠١ هـ وتشرد بنوه فى الآفاق ، دار ابن القارح مع الأيام ، وتنكر لمن كانوا أولياء نعمته ، وأفحش فى سبِّهم وهجائهم .

وما كان أبو العلاء يجهل ، حين ذُكر له ابن القارح ، أنه أديب حلبى ، خدم أبا على الفارسى وآل المغربى ، لكن هجاءه أبا القاسم ، كان الصفةَ المميزة لشخصه ، والعنوان الدال عليه ، والكلمة الجامعة التى تُغنى أبا العلاء عن مزيد تعريفٍ بالرجل .

وقد صكت الكلمة سمع ابن القارح وهو يتهيأ للإياب إلى حلب ، يحمل عبء نيّفٍ وسبعين عامًا من عمره (ص ٤٥)[1] ، أمضاها فى التنقل والتجوال ، وقد أنهكه العكوف على الملذات البهيمية (ص ٦٣) وامتصت حرفة الأدب حيويته .

ولم يفته ما تعنى كلمةُ أبى العلاء فيه ، بل أدرك من فوره أنه يستشرُّ طبعَه ويتصوره بصورة من يضع الكفر موضع الشكر (٥٥) ، فأشفق أن ينبو به المكانُ فى حلب ، وفيها أبو العلاء ملء القلوب والأسماع والأبصار مهابةً وعلمًا ، وتقى وورعًا .

وزيّن له ذكاؤه العملى أن يمهد لأوبته ، وبهذه الرسالة يتملق فيها أبا العلاء ، ويسخو فى مدح علمه وفضله ، ثم يبسط عذره فى هجاء أبى القاسم وبغضه إياه ، ويشكو إليه غدرَ الأصحاب وكيد الحسّاد وأفاعيل الزمن (٦٤ : ٦٥) استدرارا لعطفه ورحمته ، ويشتدُّ فى الحملة على الملحدين تظاهرا بالغيرة على الدين ، حريصًا على أن يعرض فى ثنايا ذلك كله ، بضاعته من العلم والأدب .

ووصلت الرسالة تنضح نفاقا وخبثا وقبحا ..

وزادت أبا العلاء علما بكاتبها ، فكانت شاهدا على النفاق البغيض والرياء الرخيص .

* * *

(١) أرقام النقول من رسالة ابن القارح ، تشير إلى صفحاتها مع رسالة الغفران ، ط الذخائر.

ولعل أقسى ما آلمَ أبا العلاء وهو يصغى إلى رسالة ابن القارح ، إيغالُه فى نهش جثةِ أبى القاسم المغربى ميّتًا ، وتبريرُه هجاءه إياه بقوله :

« وبُغضى له ، شهد اللّهُ ، حيًا وميتًا ، أوْجبَهَ أخذهُ محاريبَ الكعبة الذهبَ والفضة ، وضربُها دنانير ودراهمَ سماها الكعبية ... وكم دمٍ سفك ، وحريم انتهك ، وحُرَّةٍ أرمَلَ ، وصبىٍّ أيتم .. » (٥٨) .

فأين كانت تلك الغضبة للدين ، حين كان ابن القارح يملأ جيوبه من الدنانير الكعبية ، ويرتع فى خير من يعلم أنه سفك الدماء ، وانتهك الحريم ، وأرمل الحرائر ، وأيتم الصبية ؟ .

وهل كان شىء من ذلك كله ، إن كان حقًا وصدقًا ، إلا وآل المغربى فى عز مجدهم وسلطانهم ، وابن القارح يرتع فى خيرهم ويستدر عطاياهم ؟ .

وأملى أبو العلاء ردَّه ، متلطفًا فى السخرية بابن القارح ، فكانت مقدمة الغفران رمزًا لشخصيته فى وجدان أبى العلاء ، ثم كانت المسرحية التى ألفها معبرةً عن ذاته ، كما كان أسلوب إخراجها ملائما لشخصية البطل .

حتى إذا فرغ ، بعد الرحلة بابن القارح إلى العالم الآخر ، للرد على رسالته ، ووصل إلى ما فيها من هجاء فاحش لأبى القاسم بعد موته ، علّق عليه فى جدّ وصرامة ، بقوله لابن القارح : « وأما صديقه الذى جدَب عند السبر — أى عابَ عند العداوة — فهو ، يعرف المثل : (أعْرِضْ عن ذى قبْر) إذا حجزَ دون الشخص ترابٌ ، فقد تقضّت الآراب . مَن لِيم فى حياته ، استحق المعذرةَ فى مماته . « ومن غفرَ ذنبَ حىٍّ وهو يُلحق به الأذاةَ ، فكيف لا يغفر له بعد الميتة وقد عدم منه الشذاة ؟ وسلام على رمسٍ من مُخالس ، يُعدَل بألف تسليمةٍ فى المجالس . وهو يعرف ما قالوه فى معنى البيت :

* وآتى صاحبى حيث وَدَّعا *

أى أزور قبره . »

* * *

هذه لمحة سريعة مما تميز فى مسرحية الغفران مما هو من ملامح مخرجها المؤلف ، وما هو من ملاح البطل .

أما المقدمة ، التى جعلها أبو العلاء مدخلا إلى الغفران ، ومهّد بها لظهور الممثل البطل ، فلأبى العلاء فيها شخصية الأديب اللغوى والمخرج المسرحى .

ولابن القارح هذه الرموز الثعبانية السوداء التى تهيئ المسرح لظهوره ، وتحدد الملامح التى يتمثلها أبو العلاء لشخصيته .

ونحتاج هنا إلى وقفة قد تطول ، عند هذه المقدمة ، التى غاب سرُّها عنا أمدًا ، ثم لما انكشف ، كانت هى التى وجهتنا إلى النص المسرحى فى « رسالة الغفران » .

* * *

ومقدمة الغفران :

هى مفتتح الرسالة وديباجتها . وظاهرُ الأمر فيها أنها على طولها ، تحية إخوانية من أبى العلاء لابن القارح ، يُعرب فيها عن مودة واشتياق للقاء صاحب حميم . أو قد تبدو إملاء من أمالى أبى العلاء اللغوية موضوعه « القلب » ، تفنن فيه فى عرض محفوظه من الألفاظ والأشعار ، تفنن اللاهى بها المتمكن منها القادر عليها . وهو يصطنع فى أسلوب عرضها فنّ الإلغاز البديعى ، فيما اختار من ألفاظ : الحماطة ، والحضب ، والأسود . إذ يصف لابن القارح ما يجده فى قلبه من حماطة الشوق إليه ، وما يُضمره حضبه من محبته ، وما يطويه أسوَدُه من إعظامه .

ملغزا عن حبَّة تاقلب : بالحماطة ، وهى شجر تألفه الحيات .

وبالحضب ، وهو الضخم من ذكور الحيات .

وملغزا عن سويداء القلب بالأسود ، وهو الحية العظيمة .

ومستطردًا فى ثنايا ذلك كله ، حيثما تدعو أدنى مناسبة من لفظ أومعنى أو شاهد ، إلى عرض المشتركات اللغوية للحماطة والحضب والأسود ، وإيراد الأشعار المفسرة لألغازه ، وذكر الأعلام من سودان العرب ، ومن يدخل السواد فى أسمائهم ، كالأسود ، وأبى الأسود ، وسويدة ، وسودة ، وأسودان ، وسوادة ..

وأبو العلاء قد تولى بنفسه حلَّ الألغاز فى مقدمته ، بما يصرف الحماطة والحضب والأسود ، عن دلالاتها المعجمية القريبة على شجر الحماط الذى تألفه الحيات وعلى خبيث الثعابين والذكر الضخم من الحيات ، إلى حبة القلب .

لكنه أوغل فى هذه المقدمة الثعبانية السوداء :

ففى الحماطة ذكر الناكزة ، وهى ضرب من أخبث الحيات ، والشجاع وهو أيضًا ضرب من أجرأ الحيات .

وفى الحضب ، أشار إلى خصائصه فى التلوى والانقباض ، والظهور والاختفاء ما بين صيف وشتاء ، والتسلل بين الخيف والجبل ، والسم .

وفى الأسود ، أملى فصلاً فى السواد . (١٢٩ – ١٣٤) غفران .

فى دراستى الأولى للغفران ، اكتفينا من فهم المقدمة بتحقيق ألفاظها ، وتفسير غريبها ، وتخريج شواهدها ، والتعريف بأعلامها ، إلى جانب ما فسّره أبو العلاء من إلغازها .

وغفلنا عن لغزها الأكبر ، حتى فطنت إلى أن مثل هذه المقدمة لا يمكن أن تأتى عبثًا ، ولا أن نتصور أديبًا يرد على رسالة إخوانية تلقاها من أحد أبناء بلده ، فيلقاه بتحية متشحة بالسواد ، مشحونة بأنفاس الحيات بمختلف أسمائها وأنواعها ، وحماطتها وسمها ، وتلويها وتقبضها ، وظهورها واختفائها .

كلا .. ليس هذا بمألوف فى التعبير عن المودة والاستهلال بالتحية ، ولا عهد لنا بمثله فى

تراث الأدب العربى من الرسائل الإخوانية ، القصارِ منها والطوال التى تجرى مجرى الكتب المصنفة ، سواء .

ثم كان أن رجعت النظر فى مقدمة الغفران ، فى ضوء ما فهمت من شخصية ابن القارح ورسالته ورأى أبى العلاء فيه ، فانجلى اللغز الكبير .

لقد تمثل أبو العلاء وهو يصغى إلى رسالة ابن القارح ، بما تنضح به من شر وخبث ومداهنة ونفاق ورياء ، الثعابين والحيات بتلونها وتلويها ونعومتها السامة ، فجاءت تحيته الرمزية استهلالاً تلقائيا لرسالته إلى الرجل الذى قال فيه حين ذُكر له :

« أعرفه خبرًا : هذا الذى هجا أبا القاسم المغربى » .

والوقوف عند غرابة التحية غير المألوفة . هو الذى وجهنى ، وقد عرفت شخصية ابن القارح ورأى أبى العلاء فيه ، إلى أن أرجع النظر كذلك فى رسالة الغفران . فأعطتنا النص المسرحى منها ، تقوم المقدمة فيه مقام المقدمة المسرحية ، وتؤدى الألفاظ والعبارات والشواهد الشعرية ، ما يؤديه (الديكور) والموسيقى التصويرية التى تسبق العرض المسرحى فى فنه الحديث .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم يَسِّرْ وأعِنْ

مسرحية الغفران

في مقدمة وخمسة فصول

من تأليف وإخراج : أبي العلاء المعرى

٣٦٣ - ٤٤٩ هـ

- إيضاح .
- المقدمة المسرحية .
- النص المسرحي : نماذج من مشاهد فصوله الخمسة ..

الفصل الأول : الفردوس
الفصل الثاني : المحشر
الفصل الثالث : في أطراف الجنة
الفصل الرابع : الجحيم
الفصل الخامس : في طريق العودة إلى الجنة
المشهد الختامي : العودة إلى الفردوس

إيضاح :

النص المسرحى ، يقع فى القسم الأول من « رسالة الغفران » بعد مقدمة تؤدى ما يؤديه (الديكور والموسيقى التصويرية) فى المسرح الحديث .

وقد أشرنا من قبل ، إلى هذه المقدمة الثعبانية السوداء ، بما فيها من أسماء الحيات : الناكزة ، والشجاع ، والحضب ، والأسود . ومن خصائصها : الكمون فى شجر الحماط ، والتقبض والتلوى ، والسم ، والخفاء والظهور بين شتاء وصيف ، والتسلل بين مهاوى الجبال وشقوقها . وما جمع أبو العلاء فيها ، من مشتركات لغوية للسواد .

تمهيدًا لظهور ابن القارح .

والإعلانُ عنه فيها غير صريح ولا مباشر ، بل يؤديه الحديث عن الحيات والسواد أداءً رمزيا .

ولا تدخل هذه المقدمةُ المسرحية فى النص ، ولكنها تؤدى عملها الجوهرى فى إعداد المسرح تهيئة لظهور ابن القارح الذى يمثل الدور الرئيسى من أول مشهد إلى نهاية المسرحية .

وتمضى مشاهد المسرحية فى فصولها الخمسة : الجنة ، والمحشر والجحيم ، ثم عودة إلى الجنة . وأبو العلاء هو الذى يقوم بإخراج هذه المشاهد كلها ، والإعداد لها ، وتقديم الأشخاص الذين يظهرون فى كل مشهد ، إلى جانب انفراده بالتأليف والصياغة والحوار والنقد والتلقين .

من هنا ، يظل أبو العلاء معنا طوال عرض المسرحية ، لا يظهر على المسرح ، وإن سمع صوته بين مشهد وآخر ، يخرج لنا المناظر ويوجه إلى الإعداد ، ويقدم الأشخاص .

كما يُسمع صوته حين تدعو الضرورة إلى إيضاح شىء أو التعريف بشخص .

وفى كل هذا ، يأتى الإعداد والإخراج والعرض ، بنص كلمات أبى العلاء فى الغفران ، وأسلوبه وحواره .

وإذ صحبتُ أبا العلاء طويلاً فيما وصل إلينا من تراثه ، واشتغلت برسالة الغفران تحقيقًا ودراسة وتدريسًا ، أبحث لنفسى – فيما نقلت من مشاهدها ، نماذج مثلا – أن أضيف إضاءات هامشية ، لما أقدّر الحاجة إليه ، بما أفهم من شخصية المؤلف ، وما أعرف من خصائص أسلوبه ، وعالمه النفسى .

مع تحديد هذه الإضافات بأقواس مربعة تميزها عن مادة المسرحية فى نصها المحقق .

كما استغنيت عن بعض شروح واستطرادات وأمال لغوية طوال أرى العرض المسرحى فى غنى عنها ، أو التصرف أحيانًا – على وجه التضمين أو الاختصار .

فيما عدا هذا ، أترك لأبى العلاء أن يخرج مشاهد مسرحيته ، ويتولى عرضها ، ويختار أشخاصها ويوجه حركاتهم ، ويلقنهم ما يريد لهم أن يقولوه أو يفعلوه .

ونقدر أن نص الغفران ، من تراث القرن الخامس الهجرى ،وليس من اليسير على قرائه اليوم أن يفهموه ، إلا من كان منهم على علم بتاريخ العربية والإسلام ، مع دراية لغوية عالية .

ومن هنا تبدو الحاجة إلى مراجعة النص المحقق لرسالة الغفران – طبعات الذخائر – فى شرح الغريب وتفسير الرموز وإيضاح الإيماءات وتخريج الشواهد والتعريف بالأعلام .

* * *

وبعد فينبغى لى أن أعتذر هنا عما أورد فيما يلى من نماذج لمشاهد مسرح الغفران ، سبق إيرادها فى مواضع الحاجة إليها من مباحث الدراسة النقدية ، إذ المقصود بإيرادها هنا ، بيان النسق التمثيلى للصياغة ، فى مشاهد متكاملة يراد بها مزيد إيضاح لهذه القراءة الجديدة لرسالة الغفران . والله ولى التوفيق .

* * *

المسرح :

الزمان : القرن الخامس الهجرى ، حوالى سنة ٤٢٤ هـ .

المكان : دار متواضعة فى معرة النعمان ، من أعمال حلب ، عارية من الأثاث إلا من حصير لباد .

أبو العلاء : ضرير فى الستين من عمره ، ومن حوله تلاميذه ، يتحدثون عن « ابن القارح » ورسالته ، قبل أن يبدأ أبو العلاء فى إملاء رده عليها .. فتبدأ المسرحية .

بعد قيد بطاقة الحضور والسماع ، يأذن الشيخ لقارىء رسالة ابن القارح أن يتابع القراءة من حيث انتهت جلسة السماع السابقة ، فيقرأ :

من رسالة ابن القارح :

(بلغنى عن مولاى الشيخ – أدام الله تأييده – أنه قال وقد ذُكِرت له « أعرفه خبرًا : هو الذى هجا أبا القاسم بن على بن الحسين المغربى » فذلك منه – أدام الله عزه – رائع لى ، خوفا لمن يستشر طبعى وأن يتصورنى بصورة من يصنع الكفر [بالجميل]موضع الشكر ، وهو بتعريف التنكير أنفع لى عنده ، لجلالة قدره ودينه ونسكه ، وأنا أطلعه طلعه ليعرف خفضه ورفعه ...) .

ويتابع أبو العلاء إملاء جوابه .

ومن خلال الإملاء ، الذى يأخذ حينا صيغة الإخراج ، وحينًا صيغة التلقين ، يتتابع ظهور الشخوص التمثيلية .

المقدمة المسرحية :

[أبو العلاء ، يمهد لظهور ابن القارح على المسرح ، بالرمز واللون : وفحيح الحيَّات ، والسواد] [1].

اللهم يسرْ وأعِنْ

« قد علم الخبر الذى نُسب إليه جبريل ، وهو فى كلِّ الخيرات سبيل ، أن فى مسكنى حماطة ، ما كانت قط أفانيه ، ولا الناكزة بها غانية[2] . تثمر من مودة مولاى الشيخ الجليل – كبت الله عوَّه ، وأدام روَاحَه إلى الفضل وغدوه – ما لو حملته العاديةُ من الشجر ، لدنت إلى الأرض غصونها ، وأذيل من تلك الشجرة مصونُها .

والحماطةُ ضربٌ من الشجر ، يقال لها إذا كانت رطبةً : أفانية ، فإذا يبِستْ فهى حماطة . وتوصف الحماطة بإلْف الحيَّات لها . قال الشاعر :

أتيح لهـــا ، وكان أخـــا عيالٍ شجاع[3] فى الحماطة مُسْتكِنُّ

وإن الحماطة التى فى مَقَرّى ، لَتجد من الشوق حَماطة ، والحَماطةُ حرقةُ القلب . فأما الحماطة المبدوء بها فهى حَبَّة القلب .

« وإن فى طِمْرىَّ لحضبًا[4] ، ما هو بساكنٍ فى الشقاب ، ولا بمتشرف على النقاب[5] ، ما ظهر فى شتاء ولا صيف ، ولا مرَّ بجبل ولا خيف . يُضمر من محبة مولاى الشيخ الجليل ، ما لا تضمره للولد أمٌّ ، أكان سُمُّها يُذكر أم فُقِد عندها السُّم[6] .

وليس هذا الحضبُ مجانِسا للذى عناه الراجز :

* وقد تطوَّيْتُ انطواءَ الحضب *

وقد علم – أدام الله جمالَ البراعة بسلامته – أنه يقالُ لحبة القلب : حضب .

(١) الأقواس المربعة ، تميز ما ليس من أصل النص . وحيث تجيء الجمل الدعائية فالمراد بها ابن القارح .

(٢) الحماطة : شجر يابس تألفه الحيات ، ويقال له قبل يبسه :الأفانى . ويلغز أبو العلاء بالحماطة عن حبة القلب . والناكزة : من أخبث الحيات . وغانية : مقيمة .

(٣) الشجاع : ضرب من أجرأ الحيات ، دقيق لطيف .

(٤) الطمران : مثنى طمر ، وهو الكساء البالى . يعنى بهما : ثوبه وجسمه . والحضب هنا : حبة القب ، وهو أيضًا : الضخم من ذكور الحيات .

(٥) الشقاب : المهاوى بين الجبال ، والنقاب : شقوق فيها .

(٦) يعنى : سواء أكانت الأم من ذوات السم ، أم من غيرها .

وأن منزلى لأسود[1] ، هو أعزُّ علىَّ من عنترة على زبيبة ، وأكرمُ عندى من السليك عند السُلَكة ، وأحق بإيثارى من خُفاف السُلمى بخبايا ندبة[2] .

أعظمُه أكثر من إعظام لخمٍ « الأسود بن المنذر » ، وكندة « الأسودَ بن معد يكرب » ، وبنى نهشل « الأسودَ بن يعفر »[3] ، ولا يبرح مولعًا بذكره كإيلاع « سحيم » بعُميرة ، و « نصيب » مولى أمية ، بسُعداه[4] .

وقد كان مثلُه[5] مع « الأسود بن زمعة ، والأسود بن عيد يغوث » . ومع أسودان الذى هو نبهان بن عمرو بن غوث بن طيئ . ومع « أبى الأسود » الذى ذكره امرؤ القيس فى قوله :

وذلك من خبرٍ جاءنى ونُبِّئتَهُ عن أبى الأسود

وما فارقه[6] « أبو الأسود الدؤلى » فى عمره طرفة عين ، وفى حال الراحة ولا الأيْن . وقارنَ « سويدَ بن أبى كاهل » يَرِد به على المناهل ، وحالف « سويد بن الصامت » ما بين المبتهج والشامت . وساعَف « سويدَ بن صميع » فى أيام الضيق والريع .

وكان[7] يألف فراش « سودة بنت زمعة بن قيس » امرأة النبى صلى الله عليه وسلم . ودخل الجدَثَ مع « سوادة بن عدى » ..[8] (١٢٩ – ١٣٩) غفران .

* * *

[إلى هنا تنتهى خلاصة المقدمة المسرحية ، بلفظ أبى العلاء ، بعد أن هيأت لظهور ابن القارح ، برموز الحيَّات ، والإغـــراق فى السواد مع حلّ ألغـــازها] .

---

(١) يعنى : سويداء القلب . والأسود أيضًا : ثعبان سام .

(٢) عنترة بن زبيبة العبسى ، والسليك بن السلكة ، وخفاف بن ندبة السلمى : شعراء جاهليون ، من سودان العرب .

(٣) الأسادة الثلاثة ، من سادات العرب فى الجاهلية .

(٤) سحيم : عبد بنى الحسحاس ، ونصيب :شاعران إسلاميان من الموالى . وعميرة وسلمى :حبيبتاهما .

(٥) أى : القلب . والأسود بن زمعة ، قرشى مشرك من عصر المبعث . والأسود بن عبد يغوث ، قرشى من مسلمة الفتح .

(٦) الضمير للأسود ،بمعنى القلب ، لم يفارق أبا الأسود الدؤلى طول عمره ، وهو شاعر من التابعين . وسويد بن أبى كاهل ، شاعر جاهلى من بنى يشكر .وسويد بن الصامت : من سادة الأوس وشعرائهم ، مخضرم وسويد بن صميع المرثدى : من شعراء الحماسة .

(٧) أى : وكان الأسود ، بمعنى القلب .

(٨) هو ابن عدى بن زيد ، الشاعر الجاهلى المشهور .

الشخوص المسرحية :

ابن القارح : من عصر أبى العلاء ، جاوز السبعين من عمره ، أتعبته حرفة الأدب ، وأنهكه الإسراف فى الملذات .

- المبرد ، ابن دريد ، يونس بن حبيب ، الأصمعى ، أبو عبيدة ، الأخفش الأوسط ، سيبويه ، الكسائى . } ندامى الفردوس : لغويون من العصر العباسى الأول .

- الأعشى ، زهير بن أبى سلمى ، أبو ذؤيب الهذلى ، نابغة بنى ذبيان . } شعراء جاهليون ومخضرمون .
- النابغة الجعدى ، لبيد بن ربيعة ، حسان بن ثابت } من الشعراء الصحابة رضى الله عنهم .

- عوران قيس ، تميم بن أبىّ بن مقبل ، وعمرو بن أحمر ، والشماخ ، والراعى النميرى ، وحميد بن ثور الهلالى . } شعراء إسلاميون .
- الخليل بن أحمد ، ابن درستويه ، النضر بن شميل ، المازنى ، الأصمعى . } لغويون أئمة من العصر العباسى الأول .

فى أطراف الجنة :

أبو هدرش : شاعر من الجن المؤمنين .

أسد القاصرة وذئب الأسلمى .

الحطيئة : شاعر مخضرم .

* * *

ملائكة ، حور ، ولدان ، مغنون ومغنيات ممن كن فى الدنيا وكتبت لهن التوبة ، طُهاة وسقاة .

الفصل الأول

الفردوس

مشهد : مجلس الندامى

[أبو العلاء ، يوجه إلى إخراج المشهد وإعداده]

« وقد وصلت الرسالةُ التى بحرُها بالحِكم مسجور ، ومَن قرأها لا شك مأجور . ومثلها شفع ونفع ، وقرّب عند الله ورفع . وألفيتها مفتتحة بتمجيد ، صدر عن بليغ مجيد . وفى قدرة ربنا جلّت عظمته ، أن يجعل كلَّ حرف منها شبح نور ، لا يمتزج بقمال الزور . يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين .

ولعله ، سبحانه ، قد نصب لسطورها المنجية من اللهب ، معاريجَ من الفضة والذهب . تعرج بها الملائكة من الأرض إلى السماء ، بدليل الآية : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعملُ الصالح يرفعه﴾ (١) .

وهذه الكلمة الطيبة ، كأنها المعنية بقوله تعالى : ﴿ألم تَرَ كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعُها فى السماء ، تؤتى أُكُلَهَا كلَّ حين بإذن ربها﴾ (٢) (٣٣٩ – ٣٤٠) .

وفى تلك السطور كَلِمٌ كثير ، كله عند البارئ – تقدَّسَ – أثير . فقد غرس لمولاى الشيخ الجليل ، إن شاء الله ، بذلك الثناء ، شجرٌ فى الجنة لذيذُ اجتناء ، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق والمغرب ، ليست فى الأعين كذاتِ أنواط ، وذاتُ أنواط – كما يعلم – شجرة كانوا يعظمونها فى الجاهلية ..

والولدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود ، يقولون ، والله القادر على كل عزيز : نحن وهذه الشجرة صلةٌ من اللهِ لعلىٍّ بن منصور ، نُخبأ له إلى نفخ الصور . وأباريق من الزبرجد . ويعارض تلك المدامة أنهار من عسل مصفى .

وتجرى فى أصول ذلك الشجر أنهار من ماء الحيوان [الحياة] يمدها الكوثر فى كل أوان ، وسُعُد من اللبن متفرقات ، لا تغير بأن تطول الأوقات ، وجعاقر من الرحيق المختوم ، عز المقتدر على كل محتوم ، تلك هى الراح الدائمة ، لا الذميمة ولا الذائمة ، بل هى كما قال « علقمة » مفتريا :

تشفى الصداعَ ولا يؤذيه صالبُها ولا يخالط منها الرأسَ تدويم

(١) سورة فاطر الآية ١٠ (٢) سورة ابراهيم الآية ٢٤ .

ويعمد إليها المغترق بكئوس من المسجد ، وأباريق من الزبرجد .

[إملاء فى الخمر والأباريق جاء]

فيه على ذكر خمرية لعدى بن زيد : وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الورّاقين يسأل عن (قافية عدى بن زيد العبادى) التى أولها :

بَكَرَ العاذلاتُ فى غَلَسِ الصُّبْـ ـح يعاتبنـه أمـا تستفيق

ودعا بالصبوح فجرا فجاءت قينـة فى يمينهـا إبريـق

وزعم الورّاق أن «ابن حاجب النعمان ، سأل عن هذه القصيدة وطُلِبتْ فى نسخ من ديوان « عدى » فلم توجد. ثم سمعت بعد ذلك رجلا من أهل استراباذ يقرأ هذه القافية فى (ديوان العبادى) ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم.

ثم [عود إلى خمر الجنة] :

ويعارض تلك المُدامَة أنهار من عسل مصفى ما كسبته النحل الغادية إلى الأنوار ، ولكنْ قال له العزيز القادر : كن فكان ، وبكرمه أعطى الإمكان .. لو جعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ما قُدِرَ له عارضُ مُوم .. وذلك كله بدليل قوله تعالى :

﴿مثل الجنة التى وُعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذةٍ للشاربين ، وأنهار من عسل مُصَفى ، ولهم فيها من كل الثمرات﴾[1] .

ينظر منها الناظر إلى بَدِيٍّ ، ما حلم به أبو الهندى رحمه الله ، فلقد آثر شراب الفانية ورغب فى الدنيا الدَّنِيّة ، ولا ريب أن [الشيخ] يروى ديوانه ، وهو القائل :

سيُغنى أبا الهندى عن وَطْب سالم أباريق لم يَعلَقْ بها وضر الزبد

مُفَدَّمَةٌ قَـزًّا كـأن رقابهـا رقـاب بنات المـاء أفزعها الرعد

هكذا ينشد على الإقواء . وبعضهم ينشد :

* رقاب بنات الماء ريعت من الرعد *

والرواية الأولى إنشاد النحويين وأبو الهندى إسلامى ، واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس ، وهذان اسمان شرعيان وما استشهد بهذا البيت إلا وقائله عند المستشهد فصيح فإن كان أبو الهندى قالها فقد أساء فى الإقواء . وإن كان بنى الأبيات على السكون فقد صح قول « سعيد بن مسعدة » : فى أن الطويل من الشعر له أربعة أضرب .

(١) سورة محمد الآية ١٥ .

مشهد

مع ندامى الفردوس

وكأنى به ، أدام الله الجمال ببقائه ، إذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة .

– **يظهر ابن القارح على المسرح** – وقد اصطفى له ندامى من الفردوس : كأخى ثمالة ، وأخى دوس ، ويونس بن حبيب الضبى ، وابن مسعدة المجاشعى .

– يظهرون على التوالى – فهم كما جاء فى الكتاب العزيز :

﴿ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ إخوانا على سُرُرٍ متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرَجين﴾[1] .

وأبو عبيدة يذاكرهم بوقائع العرب ومقاتل الفرسان ، والأصمعى ينشدهم ما أحسن قائلُه كلّ الإحسان .

وتهش نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية فى أنهار الرحيق .

ابن القارح : آه لمصرع الأعشى ميمون ! ولقد وددت أنه ما صدَّته قريش لما توجه إلى النبى ﷺ . وإنما ذكرته الساعة لما تقارعت هذه الآنية ، بقوله :

وشَمولٍ تحسب العـــين إذا صُفِّقتْ جندعَها نـوْرَ الذُّبَحْ[2]
مثل ريح المسك ذاكٍ ريحهـا صبَّها الساقى إذا قيـل توحْ[3]
من زِقاقِ التجـــر فى باطية جـونةٍ حـــارية ذاتِ رَوَح[4]
ذاتِ غورٍ مـــا تبـالى يومها غرف الإبريق منهـا والقـــدحْ
وإذا مـا الـراح فيهـــا أزبـدتْ أفل الإزبـاد عنهـا فمصح[5]
وإذا مكوكهـــا صَـادَمَهُ جـــانباها ، كرَّ فيها فسبح[6]
وإذا غاضت رفعنـا زقَّنـــا طلقَ الأوداج فيهـا فانْسَفَحْ[7]

(١) سورة الحجر الآية ٤٧ .

(٢) الشمول : الخمر الباردة . والجندعة : نفاخة فوق الماء . والذبح : الجزر البرى ، ولونه أحمر .

(٣) فعل أمر من توحى ، بمعنى أسرع .

(٤) التجر : اسم جمع لتاجر ، والعرب تسمى بائع الخمر تاجرا . وحارية : نسبة سماعية إلى الحيرة ، وقد اشتهرت بالخمر . والروح : السعة .

(٥) أزبدت : علاها الزبد ، الرغوة . مصح : ولى وذهب .

(٦) المكوك : طاس يشرب فيه

(٧) الطلق : الحر الطليق ، والأوداج : السبل .

ولو أنه أسلمَ ، لجاز أن يكون بيننا فى هذا المجلس ، فينشدَنا غريب الأوزان ، مما نظم فى دار الأحزان .. ويحدثنا حديثه مع هوذة بن على ، وعامر بن الطفيل ، ويزيد بن مسهر ، وعلقمة بن عُلاثة ، وسلامة ابن ذى فائش الحميرى . وغيرهم ممن مدَحَه أو هجاه ، وخافه فى الزمن أو رجاه (١٥٣ – ١٧٣) .

مشهد
نزهة فى جنة الغفران ولقاء الأعشى

[أبو العلاء ، ممهدا] :

ثم إنه أدام الله تمكينه ، يخطر له حديث شيء كان يسمى النزهة فى الدار الفانية . فيركب نجيبًا من نجب الجنة ، ويسير ومعه شيء من طعام الخلود ، فإذا رأى نجيبه يُمْلع بين كثبان العنبر ، رفع صوته متمثلاً بقول البكرى .

ابن القارح : [على فرسه يترنم بشعر الأعشى] :

ليت شعرى متى تَخُبّ بنا النا ... قة نحـو العُذَيب فالصّيبونِ[1]

مُحْقبـا زُكـرة وخبزَ رقـاقٍ ... وحباقـا ، وقطعة من نونِ[2]

هاتف : [يقول من حيث لا يراه ابن القارح] :

– أتشعر أيها العبد المغفور له ، لمن هذا الشعر ؟

ابن القارح : نعم ، حدثنا أهل ثقتنا عن أهل ثقتهم ، يتوارثون ذلك كابرا عن كابر ، حتى يصلوه بأبى عمرو بن العلاء فيرويه لهم عن أشياخ العرب ، حَرَشَة الضباب فى البلاد الكلدات وجُناة الكمأة فى البُداة ، الذين لم يأكلوا شيراز الألبان [الرائب] أن هذا الشعر لميمون بين قيس بن جندل أخى بنى ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن بكر بن وائل ...

الهاتف : أنا ذلك الرجل ، مَنَّ اللهُ علىَّ بعد ما صرتُ من جهنم على شفير ، ويئست من المغفرة والتكفير .

يلتفت إليه الشيخ هاشًّا مرتاحًا ، فإذا هو بشاب قد صار عشاه معروفًا ، وانحناء ظهره قوامًا موصوفًا .

ابن القارح : أخبرنى كيف كان خَلاصك من النار ، وسلامتك من قبيح الشنار ؟

الأعشى : سحبتنى الزبانية إلى سقر ، فرأيت رجلا فى عرصات القيامة يتلألأ وجهه

(١) العذيب والصيبون ، موضعان .

(٢) أحقب الشيء : علقه فى وسطه . الزكرة : وعاء ، من جلد ، للخمر . والحباق : نبات طيب الرائحة . والنون : السمك .

تلألؤ القمر ، والناس يهتفون به من كل أوب : « يامحمد يامحمد ، الشفاعة الشفاعة ، نُمتُّ بكذا ، ونمتُّ بكذا » .

فصرختُ فى أيدى الزبانية : يا محمد ، أغثنى فإن لى بك حرمة . فقال : (يا علىّ ، بادره فانظر ما حُرمته) فجاءنى على بن أبى طالب وأنا أعتل كى ألقى فى الدرك الأسفل من النار ، فزجرهم عنى وقال : ما حُرْمتك ؟ فقلت ، أنا القائل :

ألا أيهذا السائلى أين يَمَّمتْ ... فإن لها فى أهـــل يثرب موعدا
فآليتُ لا أرثى لهـــا من كلالةٍ ... ولامن حفًى ، حتى تلاقـى محمدا
متى ما تناخى عند باب ابن هاشمٍ ... تُراحـــى ، وتلقى من فواضله نَدا
أجِدَّك لم تسمع وصـــاة محمدٍ ... نبى الإلـــه حين أوصى وأشهدا
إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ... وأبصرت بعد الموت من قد تزوَّدا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترْصِدْ لمـا كان أرصدا
فإيـــاك والميتـــات لا تقربَنَّها ... ولا تأخذَنْ سهما حديدا لتقصدا
ولا تقربـــنَّ جـــارة إنَّ سرَّها ... عليك حرام ، فانكحـــنْ أو تأبدا
نبى يرى ما لا يـــرون ، وذكـــرُه ... أغار لعمرى فى البـــلاد وأنجدا

وقلتُ لِـ « على » : وقد كنت أومن بالله وبالحساب ، وأصدق بالبعث ، وأنا فى الجاهلية الجهلاء . فمن ذلك قولى :

فمـــا أبيْلىٌّ عـــلى هيكـــلٍ ... بناه وصَلَّبَ فيه وصـــارا[1]
يُراوح من صلـــوات المليـــك ... طـــورا سجودا وطـــورا جؤارا
بأعظم منك تُقىً فى الحســـاب ... إذا النسماتُ نقضـن الغبـــارا

فذهب « علىٌّ » إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله ، هذا أعشى قيس ، قد رُوِى مدحُه فيك ، وشهد أنك نبى مُرسَل . فقال : « هلا جاء فى الدار السابقة ؟ » فقال علىٌّ : قد جاء ولكن صدته قريش وحُبه للخمر .

فشفع لى ، فأدخِلتُ الجنة على أن لا أشرب فيها خمرا . فقرَّت عيناى بذلك ، وإن لى منادح فى العسل وماء الحيوان – اللبن – ، وكذلك مَن لم يتب عن الخمر فى الدار الساخرة ، لم يُسقَها فى الآخرة . (١٧٥ – ١٨١) غفران .

---

(١) الأبيلى : الراهب . صلب : عمل الصليب .

مشهد
مع زهير بن أبى سلمى

وينظر الشيخ (ابن القارح) فى رياض الجنة فيرى قصرين منيفين ، فيقول لنفسه لأبلُغن هذين القصرين فأسأل لمن هما ؟ فإذا قرب إليهما ، رأى على أحدهما مكتوبا : « هذا القصر لزهير بن أبى سلمى المزنى » وعلى الآخر : « هذا القصر لعبيد بن الأبرص الأسدى » .

ابن القارح : [يكلم نفسه مستعجبا] :

– هذان ماتا فى الجاهلية ، ولكن رحمة ربنا وسِعت كل شىء وسوف ألتمس لقاء هذين الرجلين فأسألهما بم غفر لهما . فيبتدئ بزهير (يظهر زهير على باب قصره) فيجده شابًّا كالزهرة الجنية ، كأنه ما لبس جلباب هرم ، ولا شكا من البرم ، وكأنه لم يقل فى الميمية :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا ، لا أبا لك ، يسأم

ابن القارح لزهير: جير جير ، أنت أبوكعبٍ وبُجير ؟

زهير : نعم .

ابن القارح : بمَ غُفِر لك وقد كنتَ فى زمان الفترة والناسُ هَمَلٌ لا يحسن منهم العمل ؟

زهير : كانت نفسى من الباطل نفورا ، فصادفتُ ملكا غفورا ، وكنت مؤمنا بالله العظيم . ورأيت فيما يرى النائم حبلاً نزل من السماء ، مَن تعلق به من سكان الأرض سلم . فعلمت أنه أمر من أمر الله ، فأوصيت بنىَّ وقلت لهم عند الموت : إن قام قائم يدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوه . ولو أدركت محمدًا لكنتُ أول المؤمنين . وقلتُ فى الميمية ، والجاهلية على السَّكِنَة[1] ، والسفَهُ ضاربٌ بالجران :

فلا تكتُمنَّ الله ما فى نفوسكم لِيخفى ، ومهما يُكتَمِ الله يَعلَمِ
يؤخَّرْ فيوضع فى كتاب فيُدَّخَر ليوم الحساب ، أو يُعَجَّل فينقم

ابن القارح : ألستَ القائل :

وقد أغدو على ثُبةٍ كرام نَشاوَى واجدين لما نشاء
يجرون البرود وقد تمشَّتْ حُمَيا الكأس فيهم والغناء

(١) السكنة : الحال . يقال . تركتهم على سكناتهم ، أى على أحوالهم التى كانوا عليها .

أأطلقت لك الخمرُ كغيرك من أصحاب الخلود ؟ أم حُرمت عليك مثلما حرمت على أعشى قيس ؟

زهير : إن أخا بكرٍ أدرك محمدًا فوجبتْ عليه الحجة ، وهلكتُ أنا والخمرُ كغيرها من الأشياء يشربها أتباع الأنبياء ، فلا حجة علىَّ .

يدعوه الشيخ إلى المنادمة ، فيجده من ظراف الندماء . فيسأله عن أخبار القدماء . (١٨١ – ١٨٥) .

* * *

مشهد
مع عبيد بن الأبرص

ثم ينصرف إلى عبيد [وقد ظهر على باب قصره] .

فإذا هو قد أعطى بقاء التأبيد .

ابن القارح : السلام عليك يا أخا بنى أسد .

عبيد : وعليك السلام . لعلك تريد أن تسألنى : بم غُفر لى ؟

ابن القارح : أجل ، وإن فى ذلك لعجبا ، أألفيتَ حُكما للمغفرة موجبا ، ولم يكن عن الرحمة مُحجبا ؟

عبيد : أخبرك أنى دخلت الهاوية ، وكنتُ قلت فى أيام الحياة :

مَن يسأل الناسَ يَحرموه وسائل الله لا يخيبُ

وسار هذا البيت فى آفاق البلاد فلم يزل يُنشَد ويخفُّ عنى العذابُ حتى أُطلقت من القيود والأصفاد . ثم كُرِّر إلى أن شملتنى الرحمة ببركة ذلك البيت . (١٨١ – ١٨٥) .

* * *

مشهد
مع عدى بن زيد

ابن القارح : وقد طمع – فى سلامة كثير من الشعراء :

ألكَ عِلْمٌ بعدى بن زيد العبادى ؟

عبيد (مشيرا بيده إلى منزل هناك) :

– هذا منزله قريبا منك .

[يظهر عدى على باب منزله، ويدنو منه ابن القارح حتى يقف عليه فيقول] :

ابن القارح : كيف كانت سلامتك على الصراط ، ومَخْلَصُكَ من بعد الإفراط ؟

عدى : إنى كنت على دين المسيح ، ومَن كان من أتباع الأنبياء قبل أن يبعث محمد فلا بأس عليه ، وإنما التبعة على من سجد للأصنام .

ابن القارح : ألا تنشدنى « الصادية » فإنها بديعة من أشعار العرب ؟

عدى منشدا : أبلغ خليلى عبـــدَ هنـــــدٍ فلا ... زِلتَ قريبا من سواد الخُصُوصْ

... ...

غُيبتَ عنى عبدُ فى ســـاعة الـــ ـشَّرِّ وجُنبتَ أوَان العـــــويصْ

لا تَنسينْ ذكـــرى على لذة الـ ـكأس وَطوْف بالخذوف النحوص[1]

إنك ذو عهـــد وذو مصدق فى مَوْكِبٍ ، أو رائدًا للقنيصْ

يا عبد هل تذكـــرنَىّ ســـاعةً مخالفًا هَدْىَ الكَـذوبِ اللَّمُوص

قد يُدرِك المبطـــىء من حظه والخير قد يسبق جهد الحريص[2]

فـــلا يزل صـــدرُك فى ريـــة يذكـــــر منى تلفـــى أو خلوص

يانفس أبقى واتَّقِى شـتم ذى الـ إعـــراض إن الحلم ما إن ينوص[3]

ياليت شـــعرى وانَ ذو عَجّةٍ متى أرى شَرْبًا حوالى أصيص[4]

بيت جلـــوفٍ بـــاردٍ ظِلُّه فيه ظبـاء ، ودواخيلُ خـوص[5]

والربـــرب المكفـــوف أردانه يمشى رويـدا كتوقّى الرهيص[6]

ينفح من أردانه المسك والـ ـعنبر والغَلوى ولُبنى قفوص[7]

والمشـــرف المشمـــول نُسقى به أخضرَ مطموثًا بمـاء الخريص[8]

ذلك خـــير من فيـــوج على الـ ـــباب وقيدين وغُلٍّ قروص[9]

(١) الخذوف : الأتان الوحشية السمينة . والنحوص : الحائل التى لم تلقح . ويعنى بالطوف بها ، الاحتيال عليها للصيد .

(٢) يسبقه : أى يفوته .

(٣) ينوص : يذهب .

(٤) وان ذو عجة : وأنا ذو صوت عال . ولأبى العلاء تعليق على ، على : « وان » والأصيص : نصف الجرة ، أو الخابية ، وهو أصل الدّن .

(٥) الجلوف : جمع جلف وهو الدن الضخم . والدواخيل جمع دوخلة ، وهى سقيفة من خوص .

(٦) الربرب : الفتى كالظبى . المكفوف : الذى كُف بديباج . الرهيص : الذى أصابته رهصة فهو يمشى وئيدا .

(٧) الغلوى : الغالية ، طيب معروف . وقفوص : بلد بالشام يجلب منه العود

(٨) المشرف : إناء للشرب . المشمول : الطيب . المطموث : الممسوس . والخريص : البارد ، وشبه به حوض للماء .

(٩) الفيوج : جمع فيج ، حارس السجن . الغل : طوق من حديد أو جلد . والقروص : من القرص وهو الغمز المؤلم .

ابن القارح :أحسنْتَ والله أحسنت . وقد عمل أديب من أدباء الإسلام قصيدة على هذا الوزن ، وهو المعروف بأبى بكر بن دريد .
قال :

يسعد ذو الجَدِّ ويشقى الحريصْ ليس لخلقٍ عن قضـــاء محيصْ

ويقول فيها :

أين ملوك الأرض من حِمْيَرٍ أكرمُ من نُصَّتْ إليهم قُلوص
جيفـــر الوهـــــاب أودى به دهرٌ على هـــدم المعـــالى حريص

إلا أنك يا أبا سوادة أحرزت السبق .
وما كنت أختار لك أن تقول :

* ياليت شعرى وَآنَ ذو عجّةٍ *

لأنك لا تخلو من أحد أمرين : إما أن تكون قد وصلت همزة القطع وذلك ردىء ، ويزيد ما فعلت من إسقاط الهمزة بعدا ، أنك حذفت الألف التى بعد النون ، فإذا حذفت الهمزة من أول الكلمة ، بقيتْ على حرف واحد ، وذلك بها إخلال .
وإما أن تكون حققتَ الهمزة فجعلتها بينَ بينَ ، ثم اجترأت على تصييرها ألفا خالصة . وحسبك بهذا نقضا للعادة .
ولو قلت : * يا ليت شعرى أنا ذو عجّةٍ *
فحذفت الواو ، لكان عندى أحسن وأشبه .

عدى :إنما قلت كما سمعت أهل زمانى يقولون ، وحدثت لكم فى الإسلام أشياء ليس لنا بها علم .

ابن القارح :لا أراك تفهم ما أريده من الأغراض ، ولقد هممتُ أن أسألك عن بيتك الذى استشهد به « سيبويه » وهو قولك :

أرواح مودِّع أم بكـــورَ أنتَ فانظر لأى حالٍ تصير

فإنه يزعم أن « أنت » يجوز أن يرتفع بفعل مضمر يفسره قولك : فانظر .
وأنا استبعد هذا المذهب ، ولا أظنك أردته .

عدى :دعنى من هذه الأباطيل ، ولكنى كنت فى الدار الفانية صاحبَ قنص ، ولعله قد بلغك قولى :

ولقد أعدو بِطِرْفٍ زانه وجهٌ منزوفٍ ، وخدٌّ كالمِسَنّ

القصيدة(١)

---

(١) القصيدة : فى الغفران منها ١٣ بيتا . والطِّرْف : الفَرَس الكريم . والمنزوف : الذى نُزِف دمه ؛ ويُستحسن من ألوان الخيل . والمِسَن : حجر يُسَنُّ به أو عليه .

وقولى فى القافية :

ومَجُودٍ قد اسجهرَّ تناويرَ كلونِ العهـونِ فى الأعلاق

القصيدة[1]

فهل لك أن نركب فرسين من خيل الجنة ، فنبعثهما على صيرانها [2] ، وخيطان نعامها ، وأسرابِ ظبائها ، وعاناتِ حُمرها ؟ فإن للقنيص لذة قد نهضتَ لكَ بها .

ابن القارح : إنما أنا صاحب قلم ولم أكن صاحب خيل ولا ممن يسحب طويلَ الذيل . وزرتُك إلى منزلك مهنئًا بسلامتك من الجحيم ، وتنعمك بعفو الرحيم ، وما يؤمننى إذا ركبتُ طِرفا زَعِلا رتع فى رياض الجنة فَآض مستسعلا[3] وأنا كما قال القائل :

لم يركبوا الخيل إلا بعد ما كبروا فهم ثقـال على أكنافهـا غُنُفُ

أن يلحقنى ما لحق صاحبَ المُتَجَرِّدة لمّا حُمل على اليحموم . وقد بلغك ما لقى ولدُ زهير ، وكذلك ولدك علقمةُ لما ركب للصيد ، فأصبح كجدِّه زيد[4] ... ويجوز إن يقذفنى السابحُ – من خيل الجنة – على صخور زمرد فيكسر فى عضدًا أو ساقًا ، فأصير ضحكة فىّ أهل الجنان .

عدى ، متبسما : ويحك ! أما علمت أن الجنة لا يُرهب لديها السقم ، ولا تنزل بسكينها النقم ؟ (١٨٧ – ١٩٧) غفران .

[يخرجان فى رحلة صيد]

فيركبان سابحين من خيل الجنة ، مركبُ كل منهما لو عُدِلَ بممالك العاجلة لرجح بها وزاد فى القيمة عليها .

مع وحش الجنة :فإذا نظر إلى صوار ترتع فى دقارى الجنة – والدقارى الرياضُ – صوّب مولاى الشيخ المِطرَدَ – وهو الرمح القصير – لأخنس ذيَّال قد رتع هناك طويلَ أيام وليال ، فإذا لم يبق بين السنان وبينه إلا قِيد ظفر قال : أمسك

---

(١) القصيدة فى الغفران ، ومنها أحد عشر بيتًا .
المجود : الروضة جاده المطر . اسجهر : نور وتوقد حسنًا بألوان الزهر . العهون : الصوف المصبوغ . الأعلاق : الجراب .

(٢) جمع صور ، وهو قطيع البقر .

(٣) الطرف الزعل : الفرس النشيط . آض : صار . واستسعل : صار كالسعلاة ، حدة ونشاطا .

(٤) انظر مصرع « جلم : صاحب المتجردة » حين حمله النعمان على ركوب فرسه اليحموم . وسالم بن زهير ، الذى عثرت به فرسه فدقت عنقه وابن زيد ، وقد خرج للصيد فلقى مصرعه ، فى شروح « رسالة الغفران » بهامش ص ١٩٦ ذخائر ط ١٠ .

رحمك الله فإنى لست من وحش الجنة التى أنشأها الله ولم تكن فى الدار الزائلة ، ولكنى كنت فى محلة الغرور أَرُودُ فى بعض القِفار فمرّ بى ركب مؤمنون قد كرِى زادهم فصرعونى ، واستعانوا بى على السفر فعوضنى الله جلت قدرتُه بأن أسكننى دار الخلود .

فيكفُّ عنه مولاى الشيخ الجليل ، ويعمِد لعلج وحشى ، ما التَّلَفُ عنده بمَخشىّ ، فإذا صار بقيد أنملة ، قال :

أمسك ياعبد الله ، فإن الله أنعم علىّ ورفع عنى البؤس ، وذلك أنى صادنى صائد بمخلب وكان إهابى له كالسلب ، فباعه فى بعض الأمصار فاتُخِذَ منه غرب ، شفى بمائه الكرب ، وتطهر به الصالحون ، فشملتنى بركة من أولئك فدخلت الجنةَ أُرزق فيها بغير حساب .

ابن القارح :فينبغى أن تتميزن ، فما كان منكن دخل الفانية فما يجب أن يختلط بوحوش الجنة .

الوحش :لقد نصَحتنا نصح الشفيق ، وسوف نمتثل ما أمرتَ .

* * *

مشهـــد
مع أبى ذؤيب الهذلى

[أبو العلاء ممهدًا]

وينصرف الشيخ ، وصاحبه عدى بن زيد ،
فإذا هما برجل يحتلب ناقةً فى إناء من ذَهب .

ابن القارح وعدى ، معًا : مَن الرجل ؟

الرجل :أبو ذؤيب الهذلى .

ابن القارح وعدى : حُييتَ وسعِدت ، لا شقيتَ فى عيشك ولا بعدت . أتحتلب مع أنهار لبن ؟ كان ذلك من الغبن .

أبو ذؤيب :لا بأس ، إنما خطر لى ذلك مثلما خطر لكما القنيص . وإنى ذكرتُ قولى فى الدهر الأول :

وإن حديثًا منكِ لو تعلمينه جَنَى النحل فى ألبان عوذٍ مَطافِل
مطافيـــلَ أبكارٍ حـــديثٍ نِتاجُها تُشاب بمـــاء مثل مـــاء المفاصل

فقيض الله بقدرته لى هذه الناقة عائدًا مُطفلا – وكان بالنعم متكفلا –

فقمت أحتلب على العادة ، وأريد أن أشوب ذلك بضرب نحل ... فإذا امتلأ إناؤه من اللبن ، مزجه بعسلٍ .
أجتناه من خليّةٍ من الجوهر .

أبو ذؤيب ، لابن القارح وعدى بن زيد : ألا تشريان ؟

يجرعان منه جرعًا ، فى لذة ، عدى يتلو الآية :

﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسلُ ربنا بالحق ونودوا أنْ تلكمُ الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون﴾[1]
غفران (١٩٩ - ٢٠٠)

ابن القـــارح : جئتَ بشيئين فى شعرك ، وددتُ أنك لم تأتِ بهما ، أحدهما قولك :

لعـــدى :

فصافَ يُفرِّى جُلَّه عن سَراتِه ... يَبُذُّ الرِهـــانَ فارهـــا متتابعـــا

والآخر قولك :

فليتَ دفعـــتَ الهـــمَّ عنى ساعةً ... فنمسى على ما خيَّلتْ ناعمى بال

عد ، **بلهجته العبادية [تنطق الجيم كافا]** :

يا مكبور - أى مجبور - لقد رُزِقتَ ما يكب - يجب - أن يشغلك القريض . إنما ينبغى أن تكون كما قيل لك : ﴿ كلوا واشربوا هنيئًا بما كنتم تعملون﴾[2] .

ابن القارح : إننى سألت ربى عزَّ سلطانه ، ألاَّ يحرمنى فى الجنة تلذذًا بأدبى الذى كنت أتلذذ به فى عاجلتى ، فأجابنى إلى ذلك ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض وعشيًّا وحين تُظهرون﴾[3] .

* * *

(١) سورة الأعراف الآية ٤٣ .
(٢) سورة المرسلات الآية ٤٣ .
(٣) سورة الروم الآية ١٨ .

أيها القلبُ تعللْ بِدَدَنْ إن هَمّى فى سماعٍ وأُذَنْ
وشـــــرابٍ خُســـرُوانى إذا ذاقــه الشـيخ تغنّى وارجحنّ [1]

وقال :

وســـــماعٍ يأذَنُ الشـيخ له وحديثٍ مثــلِ ماذِىٌ مُشــار

فكيف لنا بأبى بصير ؟

فلا تتم الكلمة ، إلا وأبو بصير ، الأعشى ، قد خَمَسهم - أى صار خامسهم - فيسبحون لله ، ويقدسونه ويحمدونه على أن جمع بينهم .

ابن القارح : يتلو الآية : ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ [2] .

فإذا أكلوا من طيبات الجنة ، وشربوا من شرابها ، [دار الحديث] .

ابن القـــارح للنابغة : يا أبا أمامة ، إنك لَحصِيفُ الرأى لبيب ، فكيف حسَّن لك لُبك أن تقول : للنعمان بن المنذر :

زعم الهمـــام بأن فاها بارد عذب ، إذا ما ذقتَه قلتَ ازددِ
زعم الهمـــام ، ولـــم أذقه ، بأنه يُشفَى ببرد لثاتِها العطِش الصدِى

ثم استمر بك القول ، حتى أنكره عليك خاصة وعامة ؟

النابغة الذبيانى ، بذكاءٍ وفهم :

لقد ظلمنى من عاب علىّ . ولو أنصف لعلم أننى احترزت أشد احتراز . وذلك أن النعمان كان مستهترًا بتلك المرأة ، فأمرنى أن أذكرها فى شعرى ، فأدرتُ ذلك فى خَلَدى فقلت : إن وصفتُها وصفًا مطلقًا ، جاز أن يكون بغيرها معلقًا . وخشيت أن أذكر اسمها فى النظم فلا يكون ذلك موافقًا للملك ، لأن الملوك يأنفون من تسمية نسائهم ، فرأيت أن أسند الصفة إليه فأقول : « زعم الهمام » إذ كنت لو تركت ذكرَه ، لظن السامع أن صفتى على المشاهدة ، والأبيات التى جاءت بعدُ داخلة فى وصف الهمام ، فمن تأمَّل المعنى وجده غير مختل . وكيف ينشدون :

« وإذا نظرت رأيت اقمر مشرقًا »

* * *

(١) الددن : اللهو واللعب . الأذن : الاستماع . ارجحن : مال واهتز .
(٢) سورة الشورى الآية ٢٩ .

مشهد

مع عدى والنابغتين
ثم معهم الأعشى فى مجلس منادمة

[أبو العلاء ممهدًا] :

يمضى ابن القارح – ومعه عدى – فى نزهته بشابين يتحادثان ، كل واحد منهما على باب قصرٍ من دُرّ .. .

ابن القارح [مسلمًا عليهما] :

– مَن أنتما رحِمكمَا الله ، وقد فَعَل ؟

الشابان [معًا] – نحن النابغتان : نابغة بنى جعدة ، ونابغة بنى ذبيان .

ابن القـــارح ، يقول ، ثبت الله وطأته :

أما نابغة بنى جعدة فقد استوجب ماهو فيه بالحنيفية . وأما أنت يا أبا أمامة فما أدرى ما هيَّأنك – أى ما جهتك ؟ .

النابغة الذبيانى : إنى كنت مُقرًا بالله ، وحججت البيت فى الجاهلية . ألم تسمع قولى :

فلا لَعَمْرُ الذى قد زرتُه حِججا ... وماهُريق على الأنصاب من جسَدِ

وقولى :

حلفت فلـــم أترك لنفسِك ريبة ... وهل يأثمنَّ ذو إمَّـــة وهو طائع

بمصطحباتٍ من لَصـــاف وثبرةٍ ... يزرن إلالاً ســـيرُهن تـدافُعُ[1]

ولم أدرك النبى ﷺ ، فتقوم الحُجة علىَّ بخلافه . وإن الله تقدست أسماؤه ، عزَّ ملكا وجَلَّ ، يغفر ما عظُم بما قلَّ .

ابن القارح ، لعدى والنابغتين :

– يا أبا سوادة ، ويا أبا أمامة ، ويا أبا ليلى ، اجعلوها ساعة منادمة ، فإن من قول شيخنا العبادى [ويلتفت إلى أبى سوادة ، عدى بن زيد] : وما بعده ؟

ابن القارح : ننشد : وإذا نظرتَ ، وإذا لمستَ ، وإذا طعنتَ ، وإذا نزعتَ ، على الخطاب .

---

(١) الإمة : الشرعة والدين . لصاف وثبرة : ماءان فى ديار ضبة . إلال : جبل بمكة .

الذبيانى : قد يسوغ هذا ، ولكن الأجودَ أن تجعلوه إخبارًا عن المتكلم ، لأن قولى : « زعم الهمام » يؤدى معنى قولنا : « قال الهمام » فهذا أسلمُ ، إذ كان الملك إنما يحكى عن نفسه . وإذا جعلتموه على الخطاب قبح : إن نسبتموه إلىّ فهو مُندِية [مخزية] وإن نسبتموه إلى النعمان فهو إزراء وتنقص .

ابن القارح : لله دَرُّك يا كوكبَ بنى مرة . ولقد صحَّف عليك أهل العلم من الرواة ، وكيف لى بأنوى عمرو : المازنى والشيبانى ، وأبى عبيدة ، وعبد الملك [**الأصمعى**] وغيرهم من النقلة لأسألهم كيف يروون ، وأنت شاهد ، لتعلم أنى غيرُ المتخرص ولا الوَلاغ ؟ (٢٠١ – ٢٠٩) غفران .

* * *

مشهد

مجلس أدبى نقدى

[الشعراء الخمسة ، ثم الرواة الأربعة الأئمة]

يظهر الرواة الأربعة : أبوا عمرو المازنى والشيبانى ، وأبو عبيدة والأصمعى ، فلا يقر هذا القول فى أذن أبى أمامة إلا والرواة أجمعون قد أحضرهم الله القادر ، من غير مشقة نالتهم ، ولا كلفة فى ذلك أصابتهم . فيسلمون [على أهل المجلس] بلطف ورفق .

ابن القارح : مَن هذه الشخوصُ الفردوسية ؟

الرواة ، معًا : نحن الرواةُ الذين شئتَ إحضارهم آنفًا .

ابن القارح : لا إله إلا الله مُكوِّنًا مدونًا ، وسبحان الله باعثًا وارثًا ، وتبارك الله قادرًا ، ثم للرواة : كيف تَرْوُن أيها المرحومون قول النابغة فى « الدالية » : وإذا نظرت ، وإذا لمست ، وإذا طعنت ، وإذا نزعت ؟ أبفتح التاء أم بضمِّها ؟

الرواة : بفتحِها .

ابن القارح : هذا شيخنا أبو أمامة يختار الضمَّ ، ويخبر أنه حكاه عن النعمان

الرواة : هو كما جاء فى الكتاب الكريم :

﴿والأمر إليكِ فانظرى ماذا تأمرين﴾[1]

ابن القارح ، للذبيانى :

– مضى الكلام فى هذا يا أبا أمامَة ، فأنشدْنا كلمتَك التى أولُها :

ألِمًّا على الممطورة المتأبده مضمخة ... أقامت بها فى المربع المتجردة

بالمسك مخضوبة الشَّوَى ... بدُرٍّ وياقوت لها متقلدةً

كأنَّ ثناياها – وما ذُقتُ طعمها – ... مجاجةُ نحل فى كميتٍ مبرده

ليقرِرْ بها النعمان عينا فإنها ... له نعمة ، فى كل يوم مجدده[2]

النابغة الذبيانى : ما أذكر أنى سلكتُ هذا القَرِىَّ قط .

ابن القارح : إن ذلك لعجب ، فمن الذى تطوع فنسبها إليك ؟

---

(١) سورة النمل الآية ٣٣ .

(٢) الممطورة : التى سقاها المطر . المتأبدة : المنزلة . المربع : حيث مطر الربيع . الشوى : الأطراف .

الذبيانى :إنها لم تنسب إلىَّ على سبيل التطوع ، ولكن على معنى الغلطِ والتوهم . ولعلها لرجل من بنى ثعلبة بن سعد .

النابغة الجعدى (مفسرا) :

صحبنى شاب فى الجاهلية ونحن نريد الحيرة ، فأنشدنى هذه القصيدة لنفسه ، وذكر أنه من ثعلبة بن عُكابة . وصادف قدومُه شكاةٌ من النعمان فلم يصل إليه .

الذبيانى :ما أجدر ذلك أن يكون (٢٠٦ – ٢٠٨) غفران .

ابن القارح ، لنابغة بنى جعدة :

– يا أبا ليلى أنشدنا كلمتك التى على الشين ، التى تقول فيها :

ولقد أغـــدو بشـــرب أُنُفٍ ... قبل أن يظهر فى الأرضِ رَبَشْ
معنـــــا زِقٌ إلـــى سُمَّهةٍ ... تَسِقُ الآكال من رطـــب وهش
فنزلنـــا بمليـــــع مقفـــــر ... مَسَّه طل من الدَّجْـــن ورَشْ
ولدينـــــا قينـــــة مسمعـــةٌ ... ضخمة الأرداف من غير نَفَش
وإذا نحـــــن بإجـــل نافـــر ... ونعـــامٍ خِيطُه مثـــلُ الحبَش
فحملنـــــا ماهِنـــــا يخدمنا ثم ... فوق يعبوب من الخيـــل أجِشْ
قلنـــــا : دونـــكَ الصيدَ به ... تدرِك المحبـــــوبَ منـــا وتَعِش
فأتانـــــا بِشَـــبُوبٍ ناشـــط ... وظليـــــم معـــه أمُّ خُشَش
فاشتوينـــا من غـــــريض طيب ... غـــير ممنـــون ، وأبْنا بِغَبَشْ

نابغة بنى جعدة :ما جعلتُ الشينَ قط رَوِيًّا ! وفى هذا الشعر ألفاظ لم أسمع بها قط : رَبَش ، وسُمَّهة ، وخُشَش ..

ابن القارح :يا أبا ليلى ، لقد طال عهدك بألفاظ الفصحاء ، وشغَلك شراب ما جاءتك بمثله بابل وأذْرِعات ، وثنتك لحومُ الطير الرائعة فى رياض الجنة ، فنسيت ما كنت عرفت. ولا ملامة إذا نسيتَ ذلك : ﴿إن أصحاب الجنة اليوم فى شُغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾ .

أما ربش ، فمن قولهم : أرض ربشاء ، إذا ظهرت فيها قطع من النبات ، وكأنها مقلوبة عن برشاء . وأما السُمَّهة ، فشبيهة بالسَّفرة تتخذ من الخوص . وأما خشَش ، فإن أبا عمرو الشيبانى ذكر فى (كتاب الخاء) أن الخشش ولدُ الظبية .

فكيف تنشد قولك :

وليس بمعروف لنـــا أن نردَّها صحاحا ، ولا مستنكرًا أن تُعَقَّرا

أتقول : ولا مستنكرا ؟ أم مستنكرٍ ؟

الجعدى :بل مستنكرا .

ابن القارح :فإن أنشد منشد : مستنكرٍ ، ما تصنع به ؟

الجعدى : أزجره وأزبره (أى أمنعه وأنهاه) نطق بأمرٍ لا يَخبُره .

ابن القارح :إنا لله وإنا إليه راجعون . ما أرى « سيبويه » إلا وَهِمَ فى هذا البيت ، لأن أبا ليلى أدرك جاهلية وإسلاما وغُذِّىَ بالفصاحة غلاما .

(٢٠٨-٢١١) .

* * *

مع أعشى قيس

ابن القارح :« وينشنى إلى أعشى قيس فيقول » :

لأعشى قيس – يا أبا بصير . أنشدنا قولك :

أمِـــنْ قَتلـةَ بالأنقـــا ءِ دارٌ غـــيرُ محلـــولَهْ

كأن لـــم تصحب الحىَّ بهـــا بيضـــاءُ عُطبُوله

أنـــاةٌ يأخـــذ القوسىَّ منهـــا منظـــر هُولـــه

ومـــا صهبـــاء من عانة فى الـــذارع محمـــوله

تولىَّ كَرْمَهـــا أصهبُ يسقيـــه ويغـــدو لـــه

ثوَتْ فى الْخَرْس أعـــوامًا وجـــاءت وهْى مقتولـــه

بماء المُزنـــة الغـــرا ءِ راحـــت وهـــى مشـــموله

بأشـــهى منـــكِ للظمـــآ نِ لـــو أنـــكِ مبذولـــة

أعشى قيس ، **منكسرًا** : ما هذه مما صدر عنى ، وإنك منذ اليوم لمولع بالمنحولات .

(٢١١ – ٢١٢) غفران

* * *

مشهد

طرب وغناء

[الأشخاص السابقون من الشعراء والرواة]

يمر رِفٌّ ، سرب ، من إوز الجنة ، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ويقف وقوف منتظرٍ لأمر .

ابن القارح ، للسرب ، [وقد توقع أن يتكلمن]:

– ما شأنكن ؟

الإوز : أُلهِمنا أن نسقط فى هذه الروضة فنغنى لمن فيها من شرب .

ابن القارح : على بركة الله القدير .

ينتفضن فيصرن جوارى كواعب ، يرفلن فى وَشْيِ الجنة ، وبأيديهن المزاهر وأنواع ما يُلتمس به الملاهى .

ابن القارح لإحداهن ، على سبيل الامتحان :

– **اعملى قول أبى أمامة ، وهو هذا القاعد :**

أمِنَ آلِ ميَّـــة رائـــح أو مغتدِ عجـــلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزود

ثقيلاً أول فتصنعه ، فتجىء به مطربا ، وفى أعضاء السامع متسربًا ، ولو نُحت صخر من أحجار ثم سمع ذلك الصوت لرقص .

(ويقترح عليها ابن القارح ، ألحانًا ثمانية ، فتؤديها ببراعة مذهلة) .

ابن القارح ، مهللا مكبرًا :

– ويحك ، ألم تكونى الساعةَ إوزةً طائرة ؟ فمن أين لك هذا العلم ؟ لو نشأتِ بين مَعْبَدٍ وابنِ سُرَيْج ، لما هِجْتِ السامعَ هذا الهيج ، فكيف نفضتِ بَلَه إوز ، وهززتِ إلى الطرب أشد الهز ؟ !

المغنية : وما الذى رأيت من قدرة بارئك ؟ إنك على سيفِ بحرٍ لا يُدرَك له عِبر . سبحان ﴿ من يحيى العظام وهى رميم﴾ [1] .

* * *

(١) سورة يس الآية ٧٨ .

مشهد :

الجماعة ولبيد بن ربيعة

يمر شاب فى يده محجن [أى عصا منعطفة الرأس] من ياقوت ، فيسلم عليهم .

الجماعة : من أنتَ ؟

الشاب : أنا لبيد بن ربيعة بن كلاب .

الجماعة : أكرمت أكرمت ، لو قلت : لبيد ، وسكتَّ ، لشُهرتَ باسمك ، وإن صمتَّ فما بالك فى مغفرة ربك ؟

لبيد : أنا بحمد الله فى عيش قَصَّرَ أن يصفه الواصفون . لا هَرَم ولا بَرَم .

ابن القارح : تبارك الملك القدوس ، ومن لا تدرك يقينه الحدوس . كأنك لم تقل فى الدار الفانية :

ولقد سئمتُ من الحيـــاة وطُولها ... وسؤالِ هذا الناسِ كيف لبيدُ

ولم تفُه بقولك :

فمتـــى أهلِكْ فـــلا أحفِله ... بَجَلى الآن مـــن العيـــش بَجَلْ
من حيـــاة قد سئمنا طولهـــــا ... وجديـــرٌ طـــولُ عيش أن يمـل

فأنشدنا « ميميتك المعلقة » .

لبيد : هيهات ! إنى تركت الشعرَ فى الدارِ الخادعة ، ولن أعود إليه فى الدار الآخرة ، وقد عُوِّضتُ ما هو خير وأبرُّ .

ابن القارح : أخبرنى عن قولك :

تَرَّاك أمكـــنةٍ إذا لـــم أرْضَـــها ... أو يرتبط بعضَ النفوسِ حِمامُها

هل أردت ببعضٍ معنى كلَّ ؟

لبيد : كلا ، إنما أردت نفسى ، وهذا كما تقول للرجل : « إذا ذهب مالك أعطاك بعض الناس مالا » وأنت تعنى نفسك فى الحقيقة ، وظاهر الكلام واقع على كل إنسان ، وعلى كل فرقة تكون بعضًا للناس ..

ابن القارح : فما مغزاك فى قولك :

وصبوح صافيةٍ وجـذب كرينة ... بموتَّر تـأتـالُـــه إبهامهـــا[1]

---

(١) الكرينة : المغنية . والموتر : له أوتار .
وتأتاله – بفتح اللام : من تأتيت له ، على مهل وترسل . وبالضم : من آل الأمر : ساسه وأصلحه .

فإن الناس يروون هذا البيت على وجهين : منهم من ينشده تأتَالُه . يجعله ، تفتعله . من آل الشيء يؤوله إذا ساسه . ومنهم من ينشد: تأتىَ لَه، من الإتيان.

لبيد : كلا الوجهين يحتمله البيت .

ابن القارح : إن أبا على الفارسى ، كان يدعى فى هذا البيت أنه مثل قولهم : استحى يستحى على مذهب الخليل وسيبويه . لأنهما يريان أن قولهم استحيت ، إنما جاء على قولهم ، استحاى . كما أن استقمت مأخوذة من استقام .
وهذا مذهب ظريف ، لأنه يعتقد أن تأتى مأخوذة من : أوى ، كأنه بُنى منها افتعل ، فقيل : ائتاى .فأعِلَّت الواو كما تُعل فى قولنا : اعتان ، من العون ، واقتال من القول . ثم قيل . ائتيت فحذفت الألف ..

لبيد : معترضٌ لِعَنَنٍ لم يعنه ، الأمر أيسرُ مما ظنَّ هذا المتكلف . (٢١٢) ثم ملتفتا إلى الأعشى : سبحان الله يا أبا بصير . بعد إقرارك بما تعلم غفر لك وحصلت فى جنة عدن ؟

ابن القارح ، متكلما عن الأعشى :

– وكأنك يا أبا عقيل تعنى قوله :

وأشـــرب بالرِّيـفِ حتى يقـا ... لَ قد طال بالريف ما قد رجَنْ[1]
صَرِيفيـــةٌ طيـــبًا طعمُهـــا ... تصفق مـا بـــين كُوبٍ ودَنْ[2]
وأقـــررت عينى من الغانيـــا ... ت ، إمـــا نكـــاحًا وإمـا أُزَنْ

وقوله :

فبِت الخليفةَ من بعلها ... وسيّدَ تيًّا ومُسْتادِهـا

وقوله :

فظللت أرعاها وظل يحوطُها ... حتى دنوت إذ الظلام دنا لها
فرميت غفلـــة عينه عن شاتِه ... فأصبت حَبَّـــة قلبِها وطحالها

ونحو ذلك مما روى عنه ؟ فلا يخلو من أحد أمرين : إما أن يكون قاله تحسينًا للكلام على مذهب الشعراء ، وإما أن يكون فعله فغفر له (ويتلو) : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسِهم لا تقنطوا من رحمةِ الله إن الله يغفر الذنوبَ جميعًا ، إنه هو الغفور الرحيم﴾ [3].

---

(١) صريفية ، من خمر صريفين .
(٢) رجن : دجن وأقام .
(٣) سورة الزمر الآية ٥٣ .

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدًا﴾[1] (٢١٨ – ٢١٩) .

ويقول رفع الله صوته – لنابغة بنى جعدة : إنى لأستحسن قولك :

طيبة النشر والبُداهـــة والـ عِلاَّت عند الرُّقاد والنَّسَمِ

وينشده عشرة أبيات منها ثم يكر عليها راجعًا فيقابل كل كلمة منها على ما ينعم به فى الجنة .

ويخطر له – جعل الله الإحسان إليه مربوبا ، ووده فى الأفئدة مشبوبا – غناء القيان بالفسطاط ومدينة السلام .

ويذكر ترجيعهن بميمية « المخبل السعدى » .

تندفع الجوارى التى نقلتهن القدرة من خلق الطير (الإوز) إلى خلق الحور ، تلحن قول « المخبل السعدى » :

ذكرَ الربابَ وذكرُها سُقمُ وصبا ، وليس لمن صبا عزمُ
وإذا أُلـمَّ خيالهـــا طرِفتْ عينى فمـــاءُ شئونهـــا سَجْمُ
كاللـــؤلؤ المســجورر توبـــع فى سِـــلكِ النظـــامِ فخانه النظـــم

ابن القارح لندمائه ، وقد هزهم الطرب :

– ألا تسمعون إلى قول السعدى ؟ :

وتقـــول عاذلتى ، وليس لهـــا بغدٍ ، ولا مـــا بعـــده ، عِلـــمُ
إن الثـــراء هو الخلـــود وإنَّ م المـــرءَ يكرُب يومَه العدمُ
ولئـــن بنيت لىَ المشقَّر فى عنقـــاء تقصر دونهـــا العُصمُ
لتنقـــبَّن عنّى المنيـــــة إنَّ م الله ليس كحكمـــهِ حكـــمُ

[**ثم يستطرد معلقا**] :

إنه المسكين ! قال هذه الأبيات وبنو آدم فى دار المحن والبلاء ، يقبضون من الشدائد على السُّلاَّه (أى الشوك) . والوالدة تخاف المنية على الولد ، ولا يزال رُعبها فى الخَلَد . والفقرُ يُرهَب ويتقى ، والمالُ يُطلب ويستبقى . والسغبُ موجود والظماء ، والكمه معروف والكماء . فالحمد لله ﴿الذى أذهب عنا الحَزنَ إن ربنا لغفور شكور، الذى أحلَّنا دار المقامة من فضله ، لا يمسُّنا فيها نصبٌ ولا يمسنا فيها لغوب﴾[2] .

(١) سورة النساء الآية ١١٦ .
(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٤ و٣٥.

فتبارك الله القدوس ، نقل هؤلاء المسمعات من زِى ربات الأجنحة إلى زى ربات الأكمفال المترجحة ، ثم ألهمهن بالحكمة حفظ أشعارٍ لم تمرر قبل بمسامعهن ، فجئن بها متقنة ، محمولة على الطرائق ملحَّنة . ولقد كانت الجارية فى الدار العاجلة إذا تُفُرِّسَت فيها النجابة ، وأحضرت لها المُلحِّنَة لتُلْقى إليها ما تعرف من ثقيل وخفيف ، تقيم معها الشهر قبل أن تلقن كذبًا ، بيتًا من الغزل أو بيتين ، ثم تُعطَى المائة [من الدنانير] أو المائتين ، فسبحان القادر على كل عزيز . (٢٥٥– ٢٢٦) .

* * *

مشهد

منافرة بين الجعدى والأعشى

نابغة بن جعدة ، للأعشى :

– يا أبا بصير ، أهذه « الرباب » التى ذكرها السعدى ، هى ربابك التى ذكرتها فى قولك :

بعاصى العواذل طلق اليدين يعطى الجزيلَ ويَرخى الإزارا
فمـــا نطق الديك حتى ملأ تُ كوبَ الرباب له فاستدارا؟

أبو بصير – هازئًا – :

– قد طال عمرك يا أبا ليلى ، وأحسبك قد أصابك الفنَد [الخرف] فبقيت على فندك إلى اليوم ! أما علمت أن اللواتى يُسَمين بالرباب أكثر من أن يحصين ؟ أفتظن أن الرباب هذه التى ذكرها القائل :

ما بال قومك يا ربابُ خُـــزرًا كأنهـــمُ غِضابُ
غـــاروا عليك ، وكيف ذا كِ ودونكِ الخـرْقُ اليبـاب ؟

أو التى ذكرها امرؤ القيس فى قوله :

دارٌ لهندٍ والربـــابِ وفَرْتنى ، ولَميسَ ، قبـــل حوادث الأيام ؟

ولعل أمَّها أمُّ الرباب المذكورة فى قوله :

• وجارتها أمُّ الرباب بمأسَل •

نابغة بنى جعدة ، [ماضيا فى سخريته] :

– أتكلمنى بمثل هذا الكلام ياخليعَ بنى ضبيعة، وقد متَّ كافرا وأقررتَ على نفسك بالفاحشة ؟ وأنا لقيت النبى ﷺ فأنشدته كلمتى التى أقول فيها :

بلغنا السماءَ مجدَنا وسناءنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال : « إلى أين يا أبا ليلى ؟ » فقلت : إلى الجنة بك يارسول الله . فقال : « لا يفضُض الله فاك » .

أغرَّك أن عدَّك بعضُ الجُهال رابع الشعراء الأربعة ؟ وكذب مُفضِّلُكَ ، وإنى لأطولُ منك نفَسا وأكثر تصرفا . ولقد بلغتُ بعدِد البيوت [من الشعر] ما لم يبلغه أحد من العرب قبلى ، وأنت لاهٍ بعفَارِتِك [خبثِك] تفترى على كرائم قومك . وإن صدقتِ فخزيًا لك ! ولقد وُفِّقت « الهِزَّانية »[1] فى تخلِيَتِك ، عاشرتْ منك النابحَ عشى فطاف الأحوية [من البيوت] على العظام المتبَذَة ، وحرص على انتبات الأجداث المنفردة ...

أبو بصير ، [معضبا مستفزّا] :

– أتقول هذا وإن بيتًا ما بنيتُ ليعدل بمائة من بنائك ؟ وإن أسهبتَ فى منطقك فإن المسهب كحاطب الليل . وإنى لفى الجرثومة من ربيعة الفرس ، وإنك لَمِن بنى جعدة ، وهل جعدة إلا رائدة ظليم نَفور ؟ أتُعيِّرنى مدحَ الملوك ، ولو قدرت يا جاهل على ذلك ، لهجرت إليه أهلك وولدك ؟ ولكنك خُلقت جبانًا لا تُدلج فى الظلماء الداجية ، ولا تُهجِّر فى الوديقة الصاحدة . وذكرتَ لى طلاق الهزانيّة ، ولعلها بانت عنى مُسِرَّةً الكَمَدِ ، والطلاقُ ليس بمنكر للسُّوقِ ولا للملوك .

الجعدى : اسكت يا ضُلَّ ابن ضُلّ . ألستَ القائل :

فدخلـــتُ إذ نـــام الرقيـــبُ فبِتُّ دونَ ثيابهـــا
حتى إذا ما اســترسلت للنـــوم بعـــد لِعابِها
قسَّمتها نصفـــين كلُّ مُســـوَّدٍ يُرمَى بهـــا
فثنيتُ جِيـــدَ غريـــرةٍ ولمست بطـــن حقـــابِها

... ...

واستقللت ببنى جعدة ، ولَيومٌ من أيامهم يرجح بمساعى قومك . وزعمتنى جبانًا وكذبتَ ، لأنا أشجع منك ومن أبيك ، وأصبرُ على إدلاج المظلمة ذاتِ الأريز [الصقيع] وأشدُّ إيغالا فى الهاجرة أمُرّ الصخدان .

ويثب نابغة بنى جعدة على أبى بصير ، فيضربه بكوزٍ من ذهب .

ابن القارح :لا عربدة فى الجنان ، إنما يُعرف ذلك فى الدار الفانية بين السفلة والهجاج . وإنك يا أبا ليلى لمنتزع [متسرع] وقد رُوى فى الحديث أن رجلاً صاح بالبصرة : يا آل قيس . فجاء النابغة الجعدى بعُصيَّةٍ له ، فأخذه شُرَطِ أبى

(١) مطلقة الأعشى ، وكانت من بنى هزان .

موسى الأشعرى فجلده ، لأن النبى ﷺ قال : « من تعزَّى بعزاء الجاهلية فليس منا » .

ولولا أن فى الكتاب الكريم : ﴿لا يُصدَّعون عنها ولا يُنزفون﴾[1] لظننتك أصابكَ نزف فى عقلك . فأما أبو بصير ، فما شرب إلا اللبن والعسل [إذ حرمت عليه خمر الجنة] وإنه لوقور فى المجلس ، وإنما مثله معنا مثل أبى نواس فى قوله :

أيها العاذلانِ فى الراح لُوما ... لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالعتاب فيها إمام ... لا أرى لى خلافه مستقيما
إنَّ حظىَ منها إذا هِىَ دَارَتْ ... أن أراها ، وأن أشم النسيما
فاصرفاها إلى سواىَ فإنى ... لستُ إلا على الحديث نديما
فكأنى وما أُحَسِّنُ منها ... قَعَدِىٌّ يُحَسِّنُ التحكيما
لم يطق حملَه السلاح إلى الحر ... بِ فأوصى المطيق ألا يقيما

نابغة بنى جعدة [معلقًا على شرب الأعشى اللبن ، دون الخمر] :

– قد كان الناس فى أيام الخادعة يظهر عنهم السفه بشرب اللبن ، لاسيما إذا كانوا أرقاء لئامًا ، كما قال الراجز :

يا ابنَ هشامٍ أهلكَ الناسَ اللبنْ ... فكلُّهم يغدو بسيفٍ وقرَنْ

وقيل لبعضهم : متى يخاف شرُّ بنى فلان ؟ قال : إذا ألبنوا .

ابن القارح ، محتدًّا :

–يجب أن يُحذَر من مَلَكٍ يعبرُ فيرى هذا المجلس ، فيرفع حديثَه إلى الجبار الأعظم ، فلا يجر ذلك إلا إلى ما تكرهان ، واستغنى ربُّنا أن تُرفعَ الأخبار إليه ، **ولكنْ جَرَى ذلك مجرى الحفَظةِ فى الدار العاجلة** . أما عَلِمتما أن آدم خرج من الجنة بذنب حقير ؟ فغيرُ آمِنٍ مَنْ وَلَدَ أن يُقدرَ له مثلُ ذلك .

ثم للأعشى :فسألتك بالله يا أبا بصير ، هل يهجس لك تمنى المدام ؟

الأعشى :كلا والله ، إنها عندى لِمثلُ المقِر ، لا يخطر ذكرها بالخلد ، فالحمد لله الذى سقانى عنها السلوانة ، فما أحفل بها أخرى الدهر .

ابن القارح، لنابغة بنى جعدة وهو ينهض مغضبا، فيكره انصرافه على تلك الحال:

– يا أبا ليلى ، إن الله جلت قدرته مَنَّ علينا بهؤلاء الحور العين اللواتى حوَّلهن عن خلق الإوز . فاخترْ لك واحدة منهن فلتذهب معك إلى منزلك ، تلاحنك أرقَّ اللِحان ، وتسمعك ضروب الألحان .

---

(١) سورة الواقعة الآية ١٩ .

لبيد بن ربيعة : إن أخذ أبو ليلى قَيْنة ، وأخذ غيرُه مثلَها ، أليس ينتشر خبرُها فى الجنة ، فلا يؤمن أن يُسمَّى فاعلو ذلك أزواجَ الإوَزِّ ؟ !
فتُضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيَان .

* * *

مشهد :**يمر حسان بن ثابت بالمجلس**

أهل المجلس : أهلاً أبا عبد الرحمن . ألا تَحدَّثُ معنا ساعة ؟

وحســـان يجلس « حسان » إليهم ، فيقولون :

– أين هذه المشروبةُ [يشيرون إلى خمر الجنة] من سبيئتك التى ذكرتَها فى قولك :

كأنَّ سبيئة من بيت راس ... يكون مزاجَهـا عسلٌ وماء
على أنيابها أو طعمَ غض ... من التفـاح هصَّره اجتناء
على فيها إذا ما الليل قلَّت ... كواكبه ، ومال بها الغطاء
إذا ما الأشرباتُ ذُكرن يومًا ... فهن لطيب الراحِ الفداءُ[1]

ويحك ! ما استحييت أن تذكر مثل هذا فى مِدحتك رسولَ الله ﷺ ؟

حسان : إنه كان أسجحَ خُلقًا مما تظنون . ولم أقل إلا خيرًا : لم أذكر أنى شربت خمرًا ولا ركبتُ مما حُظِر أمرًا . وإنما وصفت ريقَ امرأةٍ ، يجوز أن يكون حِلاًّ لى ، ويمكن أن أقوله على الظن ... وما سُمِع بأكرمَ منه صلى الله عليه : لقد أُفِكتُ فجلدَنى مع « مسطح »[2] . ثم وهب لى أختَ مارية ، فولَدتْ لى « عبد الرحمن » وهى خالةُ ولدِه إبراهيم .

يهم ابن القارح بأن يسأل حسان وغيرَه عن أشياء من شعره ، خطرَت فى ضميره . ثم يخاف أن يكونوا لما طلب غيرَ محسنين ، فيضرب عنها إكرامًا للمجلس .

(٢٢٦ – ٢٣٤) غفران

قائل من القوم ، لحسان مُعَرِّضًا :

– كيف جُبْنُك يا أبا عبد الرحمن ؟

حسان : أَلى يقال هذا وقومى أشجعُ العرب ؟ أراد ستة منهم [يوم بيعة العقبة الأولى]

(١) من همزية حسان فى مدح المصطفى يوم الفتح . وبيت رأس : قرية بحلب اشت بالكروم .
(٢) أفك : خاض فى حديث الإفك قبل أن يحسمه القرآن ببراءة السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وكذلك خاض فيه « مسطح بن أثاثة بن عباد » فجلدا فى حد الإفك .

أن يميلوا على أهل الموسم بأسيافهم . وأجاروا النبى ﷺ ، على أن يحاربوا معه كلَّ عَنود ، فرمتهم ربيعةُ ومُضر وجمع العرب عن قوس العداوة ، وأضمروا لهم ضِغنَ الشنآن . وإن ظهرَ منى تحرُّزٌ فى بعض المواطن ، فإنما ذلك على طريقة الحزم ، كما جاء فى الكتاب الكريم : ﴿ومَن يُولِّهم يومئذ دُبُرَه إلا متحرفًا لقتالٍ أو متحيزًا إلى فئة فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ (١).

يفترق أهل المجلس

* * *

(١) سورة الأنفال الآية ١٦ .

الفصل الثانى
المحشر

مشهد

مع عُوران قيس

[أبو العلاء ممهدًا]:

فبينا هو – ابن القارح – يطوف فى رياض الجنة ، لقيه خمسة نفر ، على خمس أينُقٍ .

* * *

ابن القارح :ما رأيت أحسنَ من عيونكم فى أهل الجنان ، فمن أنتم خلد عليكم النعيم ؟

[الخمسة معًا ؛ ثم واحدًا بعد الآخر ، يقدم نفسه] :

– نحن عوران قيس :

تميم بن أُبَيٍّ بن مقبل العجلانى .

وعمرو بن أحمر الباهلى .

والشمّاخ ، معقل بن ضرار ، من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، وراعى الإبل ، عبيد بن الحصين النميرى ، وحميد بن ثور الهلالى .

ابن القارح ، للشماخ :– لقد كان فى نفسى أشياء من قصيدتك التى على الزاى ، وكلمتك التى على الجيم ، فأنشدنيهما لازلت مخلَّدا كريما .

الشماخ :لقد شغلنى عنهما النعيم الدائم ، فما أذكر منهما بيتا واحدا .

ابن القارح :لقد غفلتَ أيها المؤمن وأضعتَ! أما عَلِمْتَ أنَّ كلمتيك أنفع لك من ابنتيك؟ ذُكرت بهما فى المواطن، وشهرت عند راكب السفر والقاطن. وإن القصيدة من قصائد النابغة لأنفع له من ابنته «عقرب» ولعل تلك شانته وما زانته ، وأصابها فى الجاهلية سباء . وإن شئتَ أن أنشدك قصيدتك فإن ذلك ليس بُمَتعذر علىّ.

الشماخ :أنشدنى ، ضَفَتْ عليك نعمةُ الله .

ابن القارح منشدا قصيدة الشماخ ، على حرف الزاى :

عَفا من سليمى بطنُ قَوٍّ فعالِزُ فذاتُ الغَضى فالمشرفات النواشز

الشماخ ، وكأنه يسمعها لأول مرة: شغلتنى لذائذ الخلود عن تعهد هذه المنكرات.

﴿إن المتقين فى ظلال وعيون، وفواكهَ مما يشتهون، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون﴾ (١).

إنما كنت أسوق هذه الأمور وأنا آمُلُ أن أُعارَ بها ناقةً أو أُعطَى بها كَيْلَ عِيالى سَنةً . وأنا الآن فى تفضل الله ، أغترف فى مرافد العسجد من أنهار اللبن ، فتارةً ألبانَ الإبل وتارة ألبان البقر ، وإن شئتُ لبنَ الضأن فإنه كبير جم ، وكذلك لبن المعيز . وإن أحببتُ وردا من رِسْلِ الأراوى — ضأن الجبل — فرُبَّ نهر منه كأنه دجلة أو الفرات . ولقد أرانى فى دار الشقوة أجهد أخلافَ شياهٍ لا يمتلئ منهن القعب .

ابن القارح [**منصرفا عن الشماخ إلى رفاقه**] :

— فأين عمرو بن أحمر ؟

رجل منهم :هأنذا .

ابن القارح :أنشدنى قولك :

بان الشبابُ وأخلف العمرُ ... وتغيَّر الإخوانُ والدهر

وقد اختلف الناس فى تفسير « العَمْر » فقيل : إنك أردتَ البقاء ، وقيل : إنك أردت الواحدَ من عمور الأسنان ، وهو اللحم الذى بينها .

عمرو ، متمثلاً : خُذَا وجهَ هَرْشِى أو قَفاها فإنه ... كِلاَ جانبىْ هَرشِي لهن طريقُ

ولم تترك فىَّ أهوالُ القيامة بقية للإنشاد ، أما سمعت الآية : ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عمَّا أرضعت وتضع كلُ ذات حمل حَملها وترى الناس سُكارى وما هم بُسكارى ولكنَّ عذابَ الله شديد﴾(٢).

وقد شهدتَ الموقف — بالحشر — فالعجبُ لك إذ بقى معك شىءٌ من روايتك!

ابن القارح :— إنى كنتُ أخلِصُ الدعاءَ فى أعقاب الصلوات قبل أن أنتقل من تلك الدار ، أن يمتعنى الله بأدبى فى الدنيا والآخرة ، فأجابنى إلى ما سألت وهو الحميد .

ولقد يعجبُنى قولُك :

ولقد غَدوتُ وما يفزِّعُنى ... خوف أُحاذره ولا ذُعرُ

رؤدُ الشباب كأننى غصن ... بحرامِ مكةَ ناعمٌ نَضرُ

كشراب قَبْلٍ عن مطيّته ... ولكلِّ أمر واقع قدرُ

مُدَّ النهار له وطال عليه الليـ ... ـل واستنعتْ به الخمر

ومُسِفَّةٍ دهماءَ داجنة ... ركدت وأسبِل دونهَا الستْرُ

وجرادتان تغنيانهمُ ... وتلألأ المرجانُ والشذرُ

ومُجَلجَل دانٍ زبرجدُه ... حدب كما يتحدَّب الدبر

وَنانِ حنانان بينهما ... وتَرٌ أجشُّ غناؤه زَمِرُ

---

(١) سورة المرسلات الآية ٤٢

(٢) سورة الحج الآية ٢

فما أردت بقولك : كشراب قيل ، الواحد من الأقيال ؟ أم « قيل بن عتر » من عاد ؟

عمرو الشيخ :إن الوجهين لَيَتَصَوَّران .

مما يدل على أن المرادَ « قيلُ بن عتر » قولك :

* وجرادتان تغنيانهمُ * لأن الجرادتين ، فيما قيل ، مغنيتان غنَّتا لوفد عاد عند الجرهمى بمكة ، فشُغلوا عن الطواف بالبيت ، وسؤال الله سبحانه وتعالى فيما قصدوا له ، فهلكتْ عادٌ وهم سامدون .

وقد وجدت فى بعض كتب الأغانى صوتا يقال : غنته الجرادتان فَتفكَّنْت (تعجبت) لذلك ، والصوتُ :

أقفر من أهله المصيف فبطن عردة فالغـــريف

... ...

وهـذا شعر على قـــرئ :

أفقـــــر من أهله ملعوبُ

فمن الذى نقل إلى المغنين فى عصر الرشيد وبعده أن هذا الشعر غنته الجرادتان ؟ إن ذلك لبعيد فى المعقول ، وما أجدره أن يكون مكذوبًا !

وقولك : * ومسفة دهماء داجنة * ما أردت به ؟

وقولك : * ومُجلجل دان زبرجدُه *

ابن أحمر :أمَّا ذكرُ « الجرادتين » فلاً يدل على أنى خصصتُ « قيل بن عِتر » ، وإن كان فى الوفد الذى غنَّتْهُ الجرادتان . لأن العرب صارت تسمى كل قينة جرادةً ، حملا على أن قينة فى الدهر الأول كانت تُدعى الجرادة . قال الشاعر :

تغنينا الجـــرادُ ونحن شَربُ نُعَلُّ الراحَ خالطها المشورُ[1]

وأما المسِفَّه الدهماء ، فإنها القِدرُ ، وأما المجلجَل الدانى زبرجده ، فهو العودُ . وزبرجدُه : ما حسن منه ، أما تسمع القائل يسمى ما تلوَّنَ من السحاب زِبَرجا ؟ ومَن روى * مُجلجِل * بكسر الجيم ، أراد السحاب .

وإنَّ حِفظك لمبقى عليك ، كأنك لم تشهد أهوال الحساب ، ومنادى الحشر يقول : أين فلان ابن فلان ؟ والشُوسُ الجبابرة من الملوك تجذبهم الزبانية إلى الجحيم . والنسوة ذوات التيجان يُصَرْن[2] بألسنة من

(١) المشور : العسل المجتنى .

(٢) فعله الماضى : أصار ، بمعنى أمال .

الوقود فتأخذ فى فروعهن وأجسادهن ، فيصحْن : هل من فداء ؟ هل من عذر يقام ؟ والشباب من أولاد الأكاسرة يتضاغَون – كضغاء السنور المقهور – فى سلاسل النار ، ويقولون : نحن أصحاب الكنوز نحن أرباب الفانية ، ولقد كانت لنا إلى الناس صنائع وأيادٍ فلا فادىَ ولا معين .

فهتف داع من قبل العرش : ﴿أو لم نُعَمِّرْكُمْ ما يتذكر فيه مَن تَذَكَّرَ وجاءكم النذيرُ فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ (١)

لقد جاءتكم الرسل فى زمان بعد زمان ، وبذلتْ ماوُكِّد من الإيمان ، وقيل لكم فى الكتاب :

﴿واتقوا يومًا تُرجَعون فيه إلى الله ثم تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يُظلَمون﴾ (٢) .

فكنتم فى لذات الساخرة واغلين ، وعن أعمال الآخرة متشاغلين ، فالآن ظهر النبأ ، لا ظلمَ اليوم إن الله حكَمَ بين العباد (٢٣٧ – ٢٤٧) .

* * *

مشهد

ابن القارح لتميم بن أبىّ فى عوران قيس

أنا أقص عليك قصتى :

لما نهضتُ من القبر ، وحضرت عرصاتِ القيامة ، ذكرتُ الآية : ﴿تعرُج الملائكة والروحُ إليه فى يومٍ كان مقدارُه خمسينَ ألفَ سنةٍ فاصبر صبرًا جميلا﴾ (٣) .

فطال علىَّ الأمد ، واشتد الظمأ والومَد – والومدُ : شدة الحر مع سكون الريح – وأنا رجل مِهياف ، أى سريع العطش ، فافتكرتُ فرأيت أمرًا لا قوام لمثلى به ، ولقينى الملكُ الحفيظ بما كتب لى من فعل الخير ، فوجدت حسناتى قليلة ، إلا أن التوبة فى آخرها كأنها مصباح رُفع لسالك السبيل . فلما أقمت فى الموقف زهاء شهر أو شهرين ، وخفت من الغَرق فى العرق ، زيَّنتْ لى النفس الكاذبة أن أنظم أبياتًا فى « رضوان » خازن الجنان ، عملتها فى وزن :

. ٥ قفا نبكِ من ذكرى خبيبٍ وعرفانِ ٥

(١) سورة فاطر الآية ٣٧.
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٢.
(٣) سورة المعارج الآية ٤ .

الشيخ فى عجب : كأنك أيها الرجل ، وأنت عربى صميم يُستشهد بألفاظك وقريضِك ، تزعم أن الزبرجد من الزبرج ؟ فهذا يُقوِّى ما ادعاه صاحب « العين – الخليل ابن أحمد » – من أن الدال زائدة فى قولهم : صلخدم (كزبرجد) وأهل البصرة ينفرون من ذلك .

ابن أحمر ، وقد ألهمه الله علم التصريف :

وما الذى أنكرتَ من أن يكون الزبرج من لفظ الزبرجد ؟ كأنَّ فعلاً صُرِّف من الزبرجد ، فلم يمكن أن يُجاء بحروفه كلها ، إذ كانت الأفعال لا يكون فيها خمسة أحرف من الأصول ، فقيل ، زَبْرَجَ يزبرج . ثم بُنى من ذلك الفعل اسم فقيل : زبرج . ألا ترى أنهم إذا صغروا « فرزدقا » قالوا : فريزد ، وإذا جمعوه قالوا : فرازد ؟ ، وليس ذلك بدليل على أن القاف – التى سقطت فى التصريف – زائدة .

الشيخ : كأنك زعمتَ أن فِعلا أُخِذ من الزبرجد ، ثم بُنى منه الزبرج . فقد لزِمَك على هذا ، أن تكون الأفعال قبل الأسماء .

ابن أحمر : لا يلزمنى ذلك . لأننى جعلت زبرجدًا أصلا ، فيجوز أن يحدُث منه فروعٌ ليس حكمها كحكم الأصول ...

* * *

الشيخ ، ابن القارح [منصرفا عنه إلى رفاقه] : أيُكم تميم بن أبىّ ؟

رجل منهم : هأنذا .

ابن القارح : أخبرنى عن قولك :

يا دارَ سلمى خَلاءً لا أُكلِّفها إلا المرانةَ حتى تسأم الدِّينا

ما أردت بالمرانة ؟ فقد قيل : إنك أردت اسم امرأة ، وقيل : هى اسم ناقة ، وقيل : العادة .

* * *

تميم والمحشر : واللهِ ما دخلتُ باب الفردوس ومعى كلمة من الشعر ولا الرجز . وذلك أنى حوسبتُ حسابا شديدا وقيل لى : كنتَ فيمن قاتلَ علىَّ بن أبى طالب . وانبرى لى «النجاشى الحارثى»[1] فما أفلتُّ من اللهبِ حتى سفعنى سفعات. ووسمتها برضوان ، ثم ضانكتُ الناسَ حتى وقفتُ منه بحيث يسمع

(١) شاعر إسلامى . كانت بينه وبين ابن مقبل خصومة . وهجاؤه لبنى العجلان . قوم ابن مقبل ، مشهور .

ويرى ، فما حفَل بى ، ولا أظنه أبِهَ لما أقول . فغبرتُ برهةً ، نحو عشرة أيام من أيام الفانية ، ثم عملت أبياتًا فى وزن :

بان الخليط ولو طووعتُ ما بانا وقَطَّعوا من حبال الوصل أقرانا

ووسمتُها برضوان ، ثم دنوت منه ففعلت كفعلى الأول ، فكأنى أحرِّك ثبيرا – من جبال مكة – أو ألتمس من الغضرم عبيرا . والغضرم تراب يشبه الجصّ .

مشهد فلم أزل أتتبع الأوزان التى يمكن أن يُوسم بها « رضوانُ » حتى أفَنيتها ، وأنا لا أجد عنده مغوثة ، ولا ظننته فهم ما أقول . فلما استقصيت الغرض فما أنجحت ، دعوت بأعلى صوتى ابن القارح ورضوان خازن الجنة :

: يارضوان ، يا أمينَ الجبار الأعظم على الفراديس ، ألم تسمع ندائى بك واستغاثتى إليك ؟

رضوان : قد سمعتك تذكر رضوان وما علمت ما مقصدك ، فما الذى تطلب أيها المسكين ؟

أنا رجل لا صبر لى ، وقد استطلت مدة الحساب ومعى صكٌ بالتوبة ، وهى للذنوب ماحية . وقد مدحتك بأشعار كثيرة ووسمتُها باسمك .

فقال :

وما الأشعار ؟ فإنى لم أسمع بهذه الكلمة إلا الساعة . فقلت :

الأشعار جمع شعر ، والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط ، إن زاد أو نقص أبانه الحِسُّ . وكان أهل العاجلة يتقربون به إلى الملوك والسادات ، فجئت بشىء منه إليك ، لعلك تأذن لى بالدخول إلى الجنة ، فقد استطلت ما الناسُ فيه وأنا ضعيف منين – أى مقطوع هزيل – ولا ريب أنى ممن يرجو المغفرة وتصح له بمشيئة الله تعالى .

فقال : إنك لغبين الرأى . أتأمل أن آذن لك بغير إذنٍ من رب العزة ؟ هيهات هيهات ! ﴿وأنَّى لهُم التناوشُ من مكان بعيد﴾ [1] .

ابن القارح وزفر

: فتركتُه وانصرفت بأملى إلى خازنٍ آخر يقال له « زفر » فعملت كلمة ووسمتها باسمه فى وزن قول لبيد :

تمنىَّ ابنتاى أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مُضَرْ

(١) سورة سبأ الآية ٥٢.

وقربت منه فأنشدتها ، فكأنى إنما أخاطب ركودًا صمَّاء لأستنزل أبودًا عصماء . ولم أترك وزنًا مقيدًا ولا مطلقًا يجوز أن يوسم بزفر إلا وسمته به فما نجح ولاغيرَّ . فقلت : رحمك الله ! كنا فى الدار الذاهبة نتقرب إلى الرئيس والملك بالبيتين أو الثلاثة فنجد عنده ما نحب . وقد نظمت فيك ما لو جُمع لكان ديوانًا ، وكأنك ما سمعت لى كلمة . فقال :

لا أشعر بالذى قصدت ، فما بغيتك ؟ فذكرت له ما أريد . فقال : والله ما أقدر لك على نفع ولا أملك لخلقٍ من شفع، فمن أى الأمم جئت؟ فقلت : من أمة « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب » فقال :

صدقت ، ذلك نبى العرب ، ومن تلك الجهة أتيتنى بالقريض ، لأن إبليس اللعين نفثه فى إقليم العرب ، فتعلمه نساء ورجال . وقد وجب على نصحُك ، فعليك بصاحبك لعله يتوصل إلى ما ابتغيتَ .

فيئست مما عنده ، فجعلت أتخلل العالَم ، فإذا أنا برجل عليه نور يتلألأ ، وحواليه رجال تأتلق منهم أنوار ، فقلت : من هذا الرجل ؟ فقيل : هذا « حمزة ، صريع وحشى » وهؤلاء الذين حوله ، مَن استشهد من المسلمين فى « أحد » . فقلت لنفسى الكذوب : الشعر عند هذا أنفَق منه عند خازن الجنان ، لأنه شاعر ، وإخوته شعراء ، وكذلك أبوه وجدُّه ، ولعله ليس بينه وبين مَعَدّ بن عدنان إلا من قد نظم شيئا من موزون .

فعملت أبياتا على منهج أبيات «كعب بن مالك» التى رَثى بها «حمزة»، وأولها:

صفيةُ قومى ولا تعجزى وبَكِّى النســاءَ على حمزة

وجئت حتى وليت منه فناديت :

يا سيد الشهداء ، يا عم رسول الله ﷺ ، يا ابن عبد المطلب . فلما أقبل علىَّ بوجهه أنشدته الأبيات فقال : ويحك ، أفى مثل هذا الموطن تجيئنى بالمديح ؟ أما سمعتَ الآية : ﴿لكُلِّ امرئ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغنيه﴾[1] ؟ . ﴿وجوهٌ يومئذ مُسْفِرَة * ضاحكة مستبشرة * ووجوهٌ يومئذ عليها غبَرة * ترهقها قَترة * أولئك همُ الكفَرةُ الفجَرة﴾[2].

فقال : إنى لا أقدر على ما تطلب ، ولكنى أنفذ معك رسولا إلى ابن أخى ، علىِّ بن أبى طالب ، ليخاطب النبى ﷺ فى أمرك .

فبعث معى رجلاً ، فلما قص قصتى على أمير المؤمنين ، قال : أين بيِّنتُك ؟ يعنى صحيفة حسناتى .

* * *

(١) سورة عبس الآية ٣٧ .

(٢) سورة عبس الآيتان ٣٩ و٤٠ .

شعراء يحاسبون أبا على الفارسى

أبو العلاء ممهدا لما يمليه على ابن القارح ..

وكنت قد رأيتُ فى المحشر شيخا لنا كان يدرس النحو فى الدار العاجلة يعرف بأبى علىٍّ الفارسى . وقد امترس به قومٌ يطالبونه ويقولون : تأوَّلت علينا وظلمتَنا . فلما رآنى أشار إلىّ بيده فجئته فإذا عنده طبقة منهم : « يزيد ابن الحكم الكلابى » وهو يقول : ويحك . أنشدت عنى هذا البيتَ برفع الماء – يعنى قوله :

فليت كفافا كان شـــرُّك كلــه وخيرك عنى ما ارتوى الماءُ مرتوى

ولم أقل إلا : الماءَ . وكذلك زعمتَ أنى فتحتُ الميم فى قولى :

تبدلْ خليلا بى ، كشكلِكَ شكلُه فإنى خليلا صالحا بك مَقتوى

وإذا هناك راجز يقول : تأولت علىَّ أنى قلتُ :

* يا إبلى ما ذنبه فتأبَيْهْ *

فحرَكتَ الياءَ فى : تأبيه ، ووالله ما فعلت ولا غيرى من العرب .

وإذا رجل آخر يقول : ادَّعيتَ علىَّ أن الهاء راجعة إلى الدرس فى قولى :

* هذا سراقة للقرآن يدرسه *

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك ؟ ..

وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله . فقلت : يا قوم ، إن هذه أمور هينة ، فلا تُعْنِتوا هذا الشيخ فإنه يمتُّ بكتابه فى القرآن المعروف بكتاب (الحجة) . وإنه ماسفك لكم دما ، ولا احتجنَ عنكم مالا .

عود إلى بشهادة التوبة

فتفرقوا عنه .

وشُغِلت بخطابهم والنظر فى حَويرهم ، فسقط منى الكتابُ الذى فيه ذكرُ التوبة . فرجعتُ أطلبه فما وجدته . فأظهرتُ الجزع والولَه . فقال أمير المؤمنين : لا عليك ، ألك شاهد بالتوبة ؟ فقلت : نعم قاضى حلب وعدوُلها . فقال : بَمن يعرف ذلك الرجل ؟ فأقول : بـ « عبدالمنعم بن عبد الكريم » ، قاضى حلب ، حرسها الله ، فى أيام « شِبل الدولة » . فأقام أمير المؤمنين هاتفا يهتف فى الموقف : يا عبد المنعم بن عبد الكريم ، قاضى

حلب فى زمان شبل الدولة ، هل معك عِلْمٌ من توبة على بن منصور بن طالب ، الحلبى الأديب ؟ ..

فلم يُجبْه أحد ، فأخذنى الهلع . ثم هتفَ الثانيةَ فلم يجبه مجيب . فَلِيحَ بِى عند ذلك ، أى صُرِعت إلى الأرض . ثم نادى الثالثة ، فأجابه قائل يقول : « نعم ، قد شهِدت توبة على بن منصور ، وذلك بأخرةٍ من الوقت ، وحضرت مَتابَه عندى جماعةٌ من العدول ، وأنا يومئذ قاضى حلب وأعمالها ، والله المستعان . فعندئذ نهضت وقد أخذت الرمَق ، فذكرت لأمير المؤمنين عليه السلام ما ألتمس ، فأعرض عنى وقال : « إنك لَتَرُوم ممتنعا ، ولك أسوة بولدِ أبيك آدم » . وهممتُ بالحوض فكدتُ لا أصِل إليه ، ثم نغبت منه نغباتٍ لا ظمأ بعدها . وإذا الكفرةُ يحملون أنفسهم على الوِرْد ، فتَذودُهم الزبانية بعِصِىٍّ تضطرم نارا ، فيرجع أحدهم وقد احترق وَجْهُهُ أو يَدُه ، وهو يدعو بويلٍ وثبور . فطُفتُ على العِترة – من آلِ البيت – فقلت : إن كنت فى الدار الذاهبة إذا كَتَبْتُ كتابًا وفرغت منه قلت فى آخره : « وصَلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى عترته الأخيار الطيبين » . وهذه حُرْمة لى وَوَسِيلَه .

ثم مضى يلتمس الوسيلة لديهم حتى وقعوا به عند رسول الله ﷺ فقال : حتى ينظر فى عمله . فسألَ عن عملى فوُجِد فى الديوان الأعظم وقد ختم بالتوبة . فشفع لى ، فأذن لى بالدخول .

وكان مقامى فى الموقف مدة ستة أشهر من شهور العاجلة ، فلذلك بقى علىَّ حِفظى ، ما نَزَفَتْهُ الأهوال ولا نَهلكه تدقيقُ الحساب (٢٤٧ – ٢٦٠) .

* * *

مشهد **عود إلى عوران قيس**

[ثم ، يلتفت إلى عُورانِ قيس ، ويسأل :]

– فأيكم راعى الإبل ؟

[يشيرون إليه] ويقولون : هذا .

ابن القارح : [بعد أن يسلم عليه] : أرجو أن لا أجدك مثل أصحابك صِفرا من حفظك وعربيتك ؟

الراعى : أرجو ذلك ، فاسألنى ولا تُطِلْ .

ابن القارح : أحَقّ ما روَى عنك « سيبويه » فى قصيدتك اللاميةِ التى تمدح بها عَبد الملك ابن مروان ، من أنك تنصبُ الجماعة فى قولك :

أيامَ قومى والجمـاعةَ كالذى لزم الرحالةَ أن تميل مَميلا؟

الراعى :حقٌّ ذلك .

ابن القـــارح : ينصرف عنه رشيدًا إلى [خامسهم] حُميدِ بنِ ثَورٍ الهلالى لحميد :
– إيهٍ يا حُميدُ ! لقد أحسنت فى قولك :

أرى بصرى قد رابنى بعد صحة وحسبُك داءً أن تصح وتسلما
ولـن يلبثَ العَصْرانِ : يوم وليلة إذا طلبـــا أن يدُرِكا مـــا تَيمَّما

فكيف بصرك اليوم ؟

حميد : إنى لأكونُ فى مغاربِ الجنة ، فألمحُ الصديقَ من أصدقائى وهو بمشَارقها ، وبينى وبينه مسيرةُ ألوفِ أعوامٍ للشمسِ التى عَرَفتَ سُرعةَ مسيِرِها فى العاجلة . فتعالى اللهُ القادرُ على كل بديع .

ابن القارح :لقد أحسنت فى الداليةِ التى أوَّلُهَا :

جِلبَّانةٌ ورهاءُ تَخصى حِمارَها بِفِي مَن بَغَى خيرًا لديها الجلامدُ

حميد :لقد شُغلتُ عن كلِّ ميم ودالٍ ، بملاعبةِ حُورٍ خِدَال .

ابن القارح :أمِثلُ هذه (الدالية) تُرفَضُ ..؟ وفيها الصفة التى ظننت أن القُطامىَّ أخذها منك ، وقد يجوز ذلك لأنكما فى عصر واحد ، وذلك قولُك :

تَأوَّبهـــا فى ليلِ نَحسٍ وَقرَّةٍ خليلى أبو الخَشخاش والليل باردُ
فَقام يُصَادِيها ، فقالت : تُريدُنى على الزَّادِ ؟ شَكلٌ بَيْنَنَا مُتباعِدُ
إذا قال: مهلا أسْجِحِي، لَمَحْت له بزَرقاءَ لـــم تدخُل عليهـــا المرواد

هذه الصفة نحوٌ من قول القُطامىِّ :

تَلَفَّعْتُ فى طلٍّ وريحٍ تَلُفُّنى وفى طِرْمِساءَ غير ذَاتِ كواكبِ
إلى حَيزبونٍ تُوقدُ النـــارَ بَعدَ ما تَصوَّبَت الجوزاءُ قَصْدَ المغارب
تقول، وقد قَرَّبتُ كُورى ونـاقَتى إليكَ فـــلا تَذعَـــرْ عَلىَّ ركائبى

والأبيات معروفة .

حميد : لقد شُغِلتُ بما وهب ربى الكريم ، ولا خوف علىَّ ولا حَزَن . ولقد كان الرجلُ منا يُعمِلُ فكرَهُ السنةَ أو الأشهرَ ، فى الرجُلِ قد آتاهُ اللهُ الشرَفَ والمالَ ، فربما رجع بالخَيبةِ ، وإن أعطى فعطاءٌ زهيد ، ولكن النظم فضيلة العرب . (٢٤٨ – ٢٦٧) غفران .

* * *

مشهد

مع لبيد فى حى القيسية بالجنة وأبياته الثلاثة بها

ويعرض لهم لَبيدُ بنُ ربيعةُ فيدعوهم إلى مَنزله بالْقَيْسِيَّةِ[1] ويُقسِمُ عَليهم ليَذهبُنَّ معه . يمشون قليلا، فإذا هم بأبيات ثلاثة ليس فى الجنة نظيرُها بَهاءً وحُسنًا .

لَبيدٌ [مشيرًا إليها] : أتعرفُ أيها الأديبُ الحَلَبىُّ هذه الأبيات ؟

ابن القارح :لا ، والذى حجَّت القبائلُ كعبتَه .

لَبيدُ :أما الأولُ فقَوْلى :

إن تقـــوى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذنِ اللهِ رَيْثى وعَجَـــلْ

وأما الثانى فقولى :

أحْمَـــــدُ اللهَ فلا نِدَّ له ... بيَديْه الخَـيرُ ، ما شاءَ فَعَلْ

وأما الثالثُ فقولى :

من هَدَاه سُبلَ الخَير اهْتَدَى ... نَاعِمَ البَال ، ومَنْ شاءَ أضَلْ

صَيَّرَها رَبِّى اللطيفُ الخبيرُ أبياتًا فى الجنة ، أسكُنُها أُخرى الأبَدِ ، وأَنعَمُ نعيمَ المُخلَّد .

ابن القارح ومن معه [فى عجب] : إنَّ اللهَ قديرٌ على ما أَرادَ .

---

(١) يعنى حى بنى قيس فى الجنة ، ولبيد منهم .

مشهد

مأدُبة فى جنـة الغفـران

ويَبْدو للشيخ ، أيدَ اللهُ مَجدَه ، أن يَصنعَ مأدُبةً فى الجنانِ يَجمَعُ فيها مَن أمكنَ من شُعَراءِ الخَضرَمة والإسلام ، والذين أصَّلوا كلامَ العَرب وجعلوهُ محفوظًا فى الكُتب . فيَخْطِرُ له أن تكون كمآدب الدارِ العاجلة ، إذ كانَ البارئ جلَّت عَظَمتُه لا يُعجزه أن يَأتيهَم بجميع الأَغراض . فتُنشأُ أرجاءُ على الكَوثَرِ من دُرٍّ وعسجد ، لِطَحْنِ بُرِّ الجَنَّةِ ، فإذا اجتَمَع من الطَّحْنِ ما يُظَنُّ أنه كافٍ للمَأدُبَة ، تَفَرق خَدَمُه من الوِلدانِ المُخَلَّدِين فجاءُوا بالجداء ، وضروب الطير التى جَرَت العادةُ بأكلها . وقال : أحضِروا مَن فى الجَنَّةِ من طُهاةِ حَلَب على مَمرِّ الأزمان . فتحضر جماعةٌ كثيرةٌ فيأمُرُهم باتخاذِ الأطعمةِ . وتلك لذةٌ يَهبُها الله سبحانه ، بدليل قولهِ تعالى : ﴿وفيهَا مَا تَشْتَهِيه الأنفسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ وأنتم فيها خالِدُون . وتلكَ الجَنَّةُ التى أُورِثتُمُوها بمَا كُنتمْ تَعْمَلُونَ . لكُمْ فيها فاكِهَةٌ كثِيرَةٌ منها تَأكُلون﴾[1] .

فإذا أُتَت الأطعِمةُ ، افترقَ غِلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ المكْنونُ لإحضارِ المَدْعُوِّينَ . فلا يتركونَ فى الجنةِ شاعرًا إسلاميًّا ولا مُخضرمًا ، ولا عالمًا بشىءٍ من أصنافِ العلوم ولا مُتأدبًا ، إلا أحضَرُوه . فيَجْتَمِعُ خَلْق كثيرٌ فتُوضَعُ الخُونُ – جمع خوان – من الذهب واللُّجَيْنِ . ويجلِسُ عليها الآكِلونَ . وتُنقلُ إليهم الصِّحافُ . فإذا قَضَوا الأَرَبَ من الطعام ، جاءَت السُّقاةُ بأصناف الأشربَةِ والمُسمِعاتُ بالأصواتِ المُطربَة .

ابن القارح لغلمانه: عَلَيَّ بمَن فى الجَنةِ من المُغَنين والمغَنيات مِمَّنْ كان فى الدارِ العاجلة فَقُضِيَتْ له التَّوْبَةُ .

تَحْضُرُ جَماعةٌ كثيرةٌ من رجالٍ ونساءٍ فيهم :

الغَرِيضُ ومَعْبَدُ ومِسْجَحٍ وابنُ سُرَيْجٍ .

ثم يَحْضُر إبراهيمُ الموْصلى وابنهُ إسحاق :

أحد المدعوين ، وقد رأى أسرابَ قِيان حضَرْنَ ، مِثلَ بَصبصَ ودنانيرَ وعِنانَ :

مِن العَجَب أنَّ الجَرَادَتينْ فى أقاصى الجَنَّةِ .

ابن القارح :لابُدَّ من حضُورِهما .

يَركَبُ بعضُ الخَدَم ناقةً من نوقِ الجنَّة ويذهَبُ إليهما على بُعدِ مكانهما ، فتُقبلانِ أسرعَ من البَرْقِ .

---

(١) سورة الزخرف الآيتان ١٧ و٢٧

ابن القارح بعد أن يحييهما ببشاشة : كيف خَلصْتُما إلى دارِ الرحمة ، بعد ما خبطتما في الضلال ؟

الجرادتان : قُدِرَتْ لنا التَّوْبةُ ، ومُتْنا على دينِ الأنبياءِ المُرْسَلين .

ابن القارح : أحسَنَ اللهُ إليكما ، أسمعانا شيئًا من القصيدةِ الحائيةِ التى تُرْوَى لِعبيدِ بن الأبرص – مَرةً ، ولأوسِ بن حجر أخرى .

الجرادتان تغنيان ، وما سمِعنَا قَطُّ بعبيد ولا أوس :

وَدِّعْ لَمِيسَ وداعَ الوَامِقِ اللاحى ... قد فنَّكتْ فى فَسادٍ بعد إصلاح
إذ تستَبِيك بمصْقولٍ عوارِضُهُ ... حَمْشِ اللثاتِ عِذابٍ غيرِ مِملاح
كأَنَّ رِيقَتَها بعدَ الكَرَى اغتبقَتْ ... مِن ماءِ أدكَنَ فى الحانوتِ نضَّاح
ومِن مُشَعْشَعَةٍ وَرْهاءَ نَشْوَتُها ... ومِن أَنابيبِ رُمَّانٍ وتُفَّاح
هَبَّت تلوم وليست ساعةَ اللاحى ... هَلاَّ انتظرتِ بهذا اللوم إصْباحى
قَاتلَها الله ، تَلْحانى وقد عَلِمَتْ ... أنّى لِنفسِىَ إفسادى وإصلاحى
إنْ أَشْربَ الخمرَ أَوَ أُرْزأْ لها ثَمنًا ... فلا مَحالة يَوْمًا أننى صاح
ولا محالةَ مِن قبرٍ بمَحْنِيَةٍ ... أو فى مَلِيعٍ كظَهرِ التُرسِ وَضَّاح

فتطربانِ من سَمِع ، وتَستفِزَّان الأفئدةَ بالسُّرور . ويكثرُ حمدُ الله سُبحانَهُ .

* * *

ويَعْرِضُ له ، أدامَ اللهُ الجَمالَ ببقائهِ ، الشَّوقُ إلى نَظَرِ سَحاب كالسحابِ الذى وصَفه قائِلُ هذه القصيدةِ ، فيُنشئُ اللهُ تَعالتْ آلاؤهُ سَحابةً كأَحسَنِ ما يكونُ من السُحُب . مُحَلاةً بالبَرقِ فى وَسَطِها وأَطرافِها ، تُمطرُ بماءِ وَرْدِ الجَنَّة من طَلٍ وطشٍّ ، وتَنثُرُ حَصى الكافورِ كأنه صِغارُ البَرْدِ .فَعَزَّ إلهُنا القديمُ الذى لا يُعْجِزهُ تصويرُ الأمانى .

ويَلتَفِتُ – إلى المدعوين – فإذا بِـ « جِرَانِ العَوْدِ النُميرىّ » .

فَيُحييه ويُرحبُ به ، ويقولُ لبعضِ القِيانِ :

ابن القارح : أسمعينا قولَ هذا الْمُحْسِنِ :

حَمَلْنَ جِرانَ العَوْدِ حتى وضَعنه ... بِعَلياءَ فى أَرْجائهـا الجنُّ تَعزِفُ
وقُلنَ تَمتعْ ليلةَ النـأْىِ هـذهِ ... فإنكَ مَرجـومُ غـدًا أو مُسيْفُ

تغنى القينة ، فتُصيبُ وتُجيدُ

القينة وقد عَجِبَت الجَماعةُ من إحسانها : أتدرُونَ مَن أنا ؟

أهل المجلس : لا ، والله المحمودِ .

القينة : أنا أُمُّ عَمرٍو التى يقولُ فيها القائلُ :

تَصُدُّ الكأسَ عَنا أُمَّ عَمْرٍو ... وكان الكأسُ مَجراها اليَمِينَا

وما شَرُّ الثلاثةِ أُمَّ عَمرٍو ... بِصاحِبِكِ الذى لا تَصْبَحِينا

أهل المجلس ، وقد ازدادوا بها عَجَبًا ، ولها إكرامًا : لِمَنْ هذا الشعرُ ؟ أَلِـ « عمرو بن عدى اللخمى ؟ » أم لـ « عمرو بن كلثوم التغلبى » ؟

القينة : أنا شَهِدتُ « نَدْمانَى جَذيمةَ : مالكا وعَقِيلاً » وصَبَحتُهما الخمرَ المُشَعْشَعةَ لَما وَجَدا « عمرو بنَ عَدِى »[1] . فكُنتُ أصرِفُ الكأس عنه ، فقال هذين البيتين . فَلعل « عَمْرو بنَ كُلثوم » حَسَّنَ بهما كلامَهَ واستزادَهما فى أبياتِه .

* * *

ويذكُرُ الشيخ أبياتًا تُنسَبُ إلى « الخليل بنِ أحْمَدَ » وهو معهم بالحضرة ، وأنها تَصلُحُ لأن يُرقَصَ عليها . فيُنشئُ اللهُ القادِرُ بلُطفِ حِكْمتِه ، شَجَرَةَ جَوزٍ ، تُونِعُ لِوقتِها ، ثم تَنفُضُ ثمرًا يَنشَقُّ عن أربعِ جَوارٍ يَرقُصن على الأبيات المنسوبةِ إلى « الخليل » :

إن الخَليطَ تَصدَّعْ ... فَطِرْ بدَائِكَ أو قَعْ

لولا جَوَارٍ حِسانٌ ... مثلُ الجآذِرِ أربَعْ

لقُلتُ للظاعِنِ اظعَنْ ... إذا بَدَا لكَ أو دَعْ

فَتهتَزُّ الأرجاءُ طربًا .

ابن القارح ، للخليل : لِمَنْ هذه الأبياتُ يا أبا عبدِ الرحمن ؟

الخليل : لا أعلَم .

ابن القارح : إنا كُنا فى الدارِ العاجلة نَروى هذه الأبياتَ لكَ .

الخليل : لا أذكُرُ شيئًا من ذلك . ويجوزُ أن يكُونَ ما قيلَ حَقًّا .

ابن القارح : أفَنسِيت يا أبا عبدِ الرحمن وأنت [أذكَرُ] العَرَب فى عصرِك ؟

الخليل : إن عُبورَ السِّراطِ يَنفُضُ الخَلَدَ مما استُودِعَ .

---

(١) الإشارة هنا إلى حكاية جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، وكان ينادم عديا اللخمى فأحبته « رقاش » أخت جذيمة ، وأوحت إليه أن يسقى الملك صرفا ثم يخطبها إليه . فزوجه إياها ثم أنكر الأمر لما صحا من سكره . وفر عدى . واختفت رقاش بالبادية ترعى وليدها عمرو بن عدى . وقد عثر عليه مالك وعقيل ابنا فارج ، فحملاه إلى خاله جذيمة ، فعرفه وضمه إليه ، وجعل مالكا وعقيلا نديميه ، لمدى أربعين سنة ، فضرب بهما المثل لطول ما نادماه .

ويخطُر للشيخ ذِكْر الفُقَّاع الذى كان يُعْمَلُ فى الدارِ الخادعة . فيُجرى الله بقدرته أنهارًا من فُقَّاع ، الجُرعةُ منها لو عُدِلَت بلذاتِ الفانيَةِ مُنذُ خَلَقَ الله السَّمَوات والأرضَ إلى يوم تُطوَى الأُممُ الآخرةُ ، لكانت أفضَلَ وأشَفَّ . فيقولُ فى نفسِه : قد عَلِمتُ أن الله قديرٌ ، والذى أُريدُ نحو ما كنت أراهُ مع الطَوَّافينَ فى الدار الذاهبة . فلا تكمُلُ هذه المقالةُ حتى يَجمَعَ الله كلَّ فُقاعىٍّ فى الجَنةِ ، مِن أهل العِراق والشام وغيرهما من البلاد . بين أيديهم الولدانُ المُخَلَّدُون يحملون السلالَ إلى أهلِ ذلك المجلِس .

ابن القارح ، لجلسائه : ما تُسَمِّىَ هذه السِّلالُ بالعربيةِ ؟

بعضهم : هذه تُسَمى البَواسِنَ ، واحِدَتُها باسِنَة .

آخر : مَن ذَكَرَ هذا من أهل اللغة ؟

ابن القارح : قد ذكرها « ابنُ دَرَستَوَيهِ » — وهو معهم فى الحَضرةِ .

الخليل : من أين جِئتَ بهذا الحرفِ ؟

لابن دستوريه

ابن دستوريه : وجَدْتُه فى كُتُبِ « النَّضْرِ بنِ شُمَيْل » .

الخليل ، للنضر : أتَحُقُّ هذا يا نَضْرُ ، فأنت عندنا الثقةُ .

النضر بن شميل : قد التَبَس علىَّ الأمرُ ، ولم يَحكِ الرجل إن شاءَ الله إلا حَقًا .

* * *

ويَعبرُ طاوُوسٌ من طواويسِ الجنة ، ويَرُوقُ مِن رآه حُسنًا ، فيشتَهيهِ « أبو عُبَيدَةَ » مَصُوصًا — أى منقوعا فى الخل — فيتكوَّنُ كذلك فى صحفةٍ من الذَهَبِ . فإذا قُضِى منه الوطَرُ انضَمت عِظامُه بعضُها إلى بعض ، ثم تَصيرُ طاووسًا كما بَدَأَ .

الجماعة : سُبحانَ مِن يُحيى العِظَامَ وهى رَمِيم ! هذا كما جاءَ فى الكتاب الكريم : ﴿وإذ قَالَ إبراهِيمُ رَبِّ أرِنى كيف تُحْيِى الموتَى قالَ أوَ لَمْ تُؤمِنْ ، قالَ بلى ولكنْ لِيَطمَئِنَّ قلبِى ، قال فَخُذْ أرْبعةً من الطير فَصُرْهُنَّ إليكَ ثُم اجعَلْ على كُلِّ جبلٍ مِنهُن جُزءًا ثم ادْعُهُن يأتِينَكَ سَعْيًا، وَاعلَم أن الله عزِيز حكِيمٌ﴾[1]

ابن القارح ، لِمَنْ حضرَ من اللغويين : ما موضعُ يَطمئِن ؟

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠

بعض النحاة : نَصْبٌ بلامِ كى .

ابن القارح : هل يجوزُ غيرُ ذلك ؟

بعض النحاة : لا يَحضُرُنَا شيءٌ .

ابن القارح : يجوزُ أن يكونَ فى موضعِ جَزمٍ بلام الأمرِ ، ويكون مخرَجُ الكلامِ مخرجَ الدعاء ، كما يقال : يارَبِّ اغفِر لى ...

وَتمرُ إوَزَّةُ مثلِ البُختية . فيَتَمنَّاها بعضُ القوم شِواءً فَتَتمثلُ على خِوانٍ من الزمُرُّدِ . فإذا قُضِيَت منها الحاجةُ عادَت بإذنِ الله إلى هيئةِ ذواتِ الجَناحِ . ويختارُها بعضُ الحاضرين كردناجا ، وبعضُهم معمولة بِسُمَّاقٍ ، وبعضُهم معمولةً بلَبَنٍ وخَلٍّ ، وغير ذلك ، وهى تكون على ما يُريدون .

أبو عثمان المازنى ، للأصمعى : يا أبا سَعيد ، ما وَزنُ إوَزة ؟

الأصمعى : ألى تُعرِّضُ بهذا يا فُصعُلُ ، وطالَ ما جئتَ مجلسى بالبَصرَةِ وأنتَ لا يُرفَعُ بكَ رأسٌ ؟ وزنُ إوَزة فى الموجودِ : إفَعْلَةَ .

المازنى : ما الدليلُ على أنَ الهمزةَ فيها زائدةٌ ، وأنها ليست بأصليةٍ ، ووَزنُها ليس فِعَلَّة ؟

الأصمعى : أما زيادَةُ الهمزة فى أولها فَيدُلُ عليه قولُهم : وَزٌّ .

المازنى : ليس ذلك بدليلٍ على أن الهمزةَ زائدةُ . لأنهم قد قالوا : نَاسٌ وأصلهُ أُناسٌ .

الأصمعى : أليسُ أصحابُك من أهلِ القِياس يزعمون أنها إفْعَلَةٌ ؟

المازنى : تأوَّلُ من أصحابِنا وادَّعاء ، لأنَّ إوَزَّة لم يَثْبُتْ أنَ الهمزةَ فيها زائدةُ .

الأصمعى ، متمثلاً رَبَّشَتْ جُـرْهُمُ نَبْلاً فَرَمى جُرْهُمًا منهـنَّ فُوقٌ وَغِرَارْ

تَبِعتَهم مُسْتَفِيدًا ، ثُم طَعَنْتَ فيما قالوه مُعِيدًا ، ما مَثَلُكَ وَمَثَلُهم إلا كما قال الأوَّلُ :

أُعَلِّمُه الرِّمـــــايَةَ كلَّ يوْمٍ فلمَّا اشـتَـدَّ سَاعِدُهُ رَمَانى

وَيَنهَضُ كالْمُغْضَبِ ، وَيفترقُ أهلُ ذلك المجلسِ وهم ناعِمون (٢٦٨ — ٢٨٤) .

* * *

مشهد
مع حمدونة الحلبية وتوفيق السوداء

[أبو العلاء ، ممهدًا] :

ويخلو الشيخ – لا أخلاه الله من الإحسان – بحوريَّتَين من الحُور العِين .

ابن القارح ، مبهورًا بجمالهما :

– أعززْ عليَّ بهلاك « الكندى » إنى لأذكر بكما قوله :

كدأبك من أم الحويرث قبلها وجارتهـا أم الربـاب بمأسَل

إذا قامتـا تضوع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

وأين صاحبتاه منكما لا كرامة لهما ولا نعمة عين ؟ لجلسةٌ معكما بمقدار دقيقة من دقائق ساعات الدنيا ، خير من مُلك بنى آكل المُرار ، وبنى نصر بالحيرة ، وآل جفنة ملوك الشام .

ويقبل على كل واحدة منهما يترشف رضابها ويقول :

– إن امرأ القيس لمسكين مسكين تحترق عظامه فى السعير وأنا أتمثل بقوله :

كأن المُدام ، وصوب الغمام وريح الخُزامى ، ونشر القُطُرْ

يُعَلُّ بـه بَرْدُ أنيابهـا إذا غـرَّد الطـائر المستحِرْ

تستغرب إحداهما ضحكا فيقول : – مم تضحكين ؟

احدى الحوريتين: فرحًا بتفضُّل الله الذى وهب نعيما وكان بالمغفرة زعيما . أتدرى مَن أنا يا علىّ بن منصور ؟

ابن القارح :أنت من حور الجنان اللواتى خلقكن الله جزاء للمتقين . وقال فيكن : ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ (١) .

الحلبية :أنا كذلك بإنعام الله العظيم . على أنى كنت فى الدار العاجلة أُعرف بـ « حمدُونَةَ » ، وأسكن فى باب العراق بحلب . وأبى صاحبُ رَحَى . وتزوجنى رجل يبيع السقَط فطلقنى لرائحة كرهها من فىَّ . وكنتُ من أقبح نساء « حلب » فلما عرفتُ ذلك زهدتُ فى الدنيا الغرارة وتوفرت على العبادة ، وأكلت من مِغزلى ، فصيّرنى ذلك إلى ما ترى .

---

(١) سورة الرحمن الآية ٥٨ .

الأخرى : أتدرى من أنا يا على بن منصور ؟ أنا « توفيق » السوداء التى كانت تخدم فى « دار العلم ببغداد » على زمان « أبى منصور محمد بن على الخازن » وكنت أخرج الكتب إلى النسَّاخ .

ابن القارح : لا إله إلا الله ، لقد كنت سوداء فصرتِ أنصع من الكافور !

توفيق السوداء : أتعجبُ من هذا ، والشاعرُ يقول لبعض المخلوقين :

لو أن من نوره مثقال خَرْدَلة فى السود كلهمُ لا بيضَّت السودُ

[يبدو عليه ما يُشبه الزهد فيهما]

. (٢٨٧ – ٢٨٤)

مشهد

ابن القارح وشجر الحور

ابن القارح ، لملَك يمرُّ من الملائكة :

– يا عبدَ الله ، أخبرنى عن الحورِ العين ، أليس فى (الكتابِ الكريم) : ﴿إنا أنشأناهُن إنشءً * فجَعلناهن أبكارًا * عُرُبًا أترَابًا * لأصحابِ اليمين﴾[1]؟

الملك : هن على ضربين : ضرب خلقه الله فى الجنة لم يعرف غيرها ، وضرب نقله الله من الدار العاجلة لما عمل من الأعمال الصالحة .

ابن القارح ، فى عجب :

فأين اللواتى لم يكُنَّ فى الدار الفانية ؟ وكيف يتميزن من غيرهن ؟

الملك : أقفُ أثَرى ، لترى البديع من قدرة الله .

فيجيء به إلى حدائق لا يَعرف كنهَها إلا الله ، ويقول :

– خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ، فإن هذا الشجر يُعرف بشجر الحور .

فيأخذ ثمرة فيكسرها ، فتخرج منها جارية حوراء عيناء ، تبرَق لحسنها حوريات الجنان .

الحورية : من أنت يا عبدَ الله ؟

ابن القارح : أنا فلان بن فلان .

الحورية : إنى أُمَنَّىً بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة .

ابن القارح : وهو يسجد إعظامًا لله القدير : هذا كما جاء في الحديث : « أعددتُ لعبادى المؤمنين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، بلْهَ ما أطلعتهم عليه » وبَلْهَ فى معنى : دع ، وكيف .. (٢٨٧ – ٢٨٨) .

... ...

---

(١) سورة الواقعة الآية ٦٣

الفصل الثالث

فى أطراف الجنة

- الجـــن المؤمنون الجيتعـــور ، وأبو هدرش .
- أسد القاصرة ، وذئب الأسلمى .
- مع الخطيئة .

مشهد
مع الجن المؤمنين

[أبو العلاء ممهدًا] :

ويبدو للشيخ –ابن القارح–أن يطَّلع إلى أهل النار فينظر إلى ما هم فيه ليعظم شكره على النعم، بدليل قوله تعالى : ﴿قال قائل منهم إنى كان لى قرين * يقول أئنَّكَ لمن المُصدِّقين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لَمَدينون * قال هل أنتم مطَّلعون * فاطَّلَع فرآه فى سَوَاءِ الجحيم * قال تاللّهِ إنْ كدتَ لتردِين * ولولا نعمة ربى لكنت من المحضَرين﴾ سورة الصافات الآيات ٥١ – ٥٧.

فيركب ويسير ، فإذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة ؛ ولا عليها النور الشعشعانى ، وهى ذات أدحال وغماليل .

ابن القارح ، لبعض الملائكة : ما هذه يا عبدَ الله ؟

الملَك :هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، وذُكروا فى سورتى الأحقاف والجن[1] . وهم عدد كثير .

ابن القارح :لأعدِلَنَّ إلى هؤلاء فلن أخلو لديهم من أعجوبة .

[كمن يحدث نفسه] يعرج عليهم ، فإذا هو بشيخ منهم جالس على باب مغارة ، فيسلم عليه ، فيحسن الرد ويقول :

الجنى :ما جاء بك يا إنسى ؟ إنك بخيرٍ لَعَسىً ...

ابن القارح :سمعتُ أنكم جنٌّ مؤمنون فجِئتُ ألتمس عندكم أخبار الجِنَّان وما لعله لديكم من أشعارِ المردَة .

الجنى :لقد أصبت العالِمَ بالأمر فسلْ ما بدا لك .

ابن القارح :ما اسمُك أيها الشيخ ؟

الجنى : أنا الخيتعور ، أحدُ « بنى الشيصبان » ولسنا من ولد إبليس ، ولكنا من الجنِّ الذين كانوا يسكنون الأرض قبل ولد « آدم » صلى الله عليه .

---

(١) آيات الأحقاف : ﴿وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾ ٢٩ : ٣١.

وآيات الجن : ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وأنَّا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حَطَبًا﴾ ١: ١٥ .

ابن القارح : أخبرنى عن أشعار الجن ، فقد جمع منها المعروف « بالمرزبانى » قطعة صالحة[1] .

الخيتعور : إنما ذلك هذيان لا معتَمد عليه . وهل يعرف البشر من النظيم إلا كما تعرف البقر من علم الهيئة ومساحة الأرض ؟ وإنما لهم خمسة عشر جنسًا من الموزون قلَّ ما يَعدون القائلون ، وإن لنا لآلاف أوزان ما سمع بها الإنس . وإنما كانت تخطر بهم أطيفال منا عارمون ، فتنفث إليهم مقدار الشظية من أراك « نعمان » . ولقد نظمتُ الرجز والقصيد قبل أن يخلق الله « آدم » بكَوْر أو كورين – والكور : الدَّوْر – وقد بلغنى أنكم معشرَ الإنس تلهجون بقصيدة « امرئ القيس » :

* قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل *

وتحفظونها الغلمان فى المكاتب . وإن شئت أمليتك ألف كلمة على هذا الوزن ، على مثل : * منزلِ وحوملِ * وألفًا على : * منزلُ وحوملُ * وألفا على : * منزلا وحوملا * وألفا على : * منزلَه وحوملَهْ * وألفا على : * منزلُهْ وحوملُه * وألف على : * منزلِه وحوملِه *

وكل ذلك لشاعر منا هلك وهو كافر ، وهو الآن يشتعل فى أطباق الجحيم .

ابن القارح : أيها الشيخ ، لقد بقى عليك حفظك !

الخيتعور : لسنا مثلكم يا بنى آدم ، يغلب علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خُلقتم من حَمَإٍ مسنون ، وخُلقنا من مارج من نار .

ابن القارح : أفتُمِلُّ علىَّ شيئا من تلك الأشعار ؟

الخيتعور : فإذا شئت أمْلَلْتُكَ مالا تحمله الركاب ولا تسعه صحف دنياك .

ابن القارح ، متراجعا عمَّا همَّ به من ذلك :

لقد شقيت فى الدار العاجلة بجمع الأدب ولم أحظَ منه بطائل ، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم دَرَّ بكىء – أى ناقة بخيلة بلبنها – ولستُ بمُوَفَّق إن تركتُ لَذَّاتِ الجنة وأقبلت أنتسخ آدابَ الجن ، ومعى من الأدب ماهو كافٍ ، لاسيما وقد شاع النسيان فى أهل أدب الجنة ، فصرت من أكثرهم رواية وأوسعهم حفظا ولله الحمد .

---

(١) للمرزبانى ، محمد بن عمران (٢٩٧ : ٣٨٤ هـ) كتاب فى أشعار الجن ، ذكره معاصره ابن النديم فى « الفهرست » .

ثم للجنى : ما كنيتُك لأكرمك بالتكنية ؟

الخيتعور : أبو هدرش .

ابن القارح : ما لى أراك أشيب وأهل الجنة شباب ؟

أبو هدرش ، الخيتعور : إن الإنس أكرِموا بذلك وأُحرِمناه ، لأنا أعطِينا الحُولة فى الدار الماضية ، فكان أحدنا إن شاء صار حيَّة رقشاء ، وإن شاء عصفورا ، وإن شاء صار حمامة . فمُنعنا التصوُّر فى الدار الآخرة ، وعُوِّض « بنو آدم » كونَهم فيما حَسُنَ من الصوَر .

ولقد لقيت من بنى آدم شرًّا ولقوا منى كذلك : دخلت مرةً دار أناس أريد أن أصرع فتاة لهم ، فتصورت فى صورة جُرَذ ، فدعوا لى السنانير ، فلما أرهقتنى تحولت صِلاًّ أرقم ، ودخلت فى قطيل هناك . فلما علموا ذلك كشفوه عنى . فلما خفت القتل تحولت ريحا هفافة فلم يروا شيئا ، فجعلوا يتعجبون لذلك ويقولون : ليس ها هنا مكان يمكن أن يستتر فيه . فبينما هم يتذاكرون ذلك ، عمدتُ لكعابهم فى الكِلة فلما رأتنى أصابها الصرعُ . واجتمع أهلها من كل أوب وجاءوا بالأطِبَّةِ وبذلوا المنفسات . فما ترك راق رقية إلا عرضها علىَّ وأنا لا أزول . فلما أصابها الحِمام طلبتُ لى سواهاً صاحبة . ثم كذلك ، حتى رزق الله الإنابة وأثاب الجزيل ، فلا أفتأ له من الحامدين . [ينطلق منشدا :]

حمدتُ من حطَّ أوزارى ومزَّقها ... عنى فأصبح ذنبى الآن مغفورا
وكنتُ آلَفُ من أتراب قرطبة ... خودا، وبالصين أخرى بنتَ يغبورا
أزور تلك وهذى غير مكترث ... فى ليلة قبل أن أستوضح النورا
ولا أُمُرُّ بوحشىٍّ ولا بشر ... إلا وغادرته ولهان مذعورَا
أروِّع الزنج إلماما بنسوتها ... والروم والترك والسَّقْلاب والغُورا
وأحضر الشربَ أعروهم بآبدة ... يُزجون عودا ومزمارا وطنبورا
فلا أفارقهم حتى يكون لهم ... فعلٌ يظل به « إبليس » مسرورا
وأصرِف العدلَ خَتلا عن أمانته ... حتى يخون وحتى يشهد الزورا
وذادنى المرءُ «نوح » عن سفينته ... ضربًا إلى أن غدا الظنبوب مكسورا
وطرتُ فى زمن الطوفان معتليا ... فى الجوحتى رأيت الماء محسورا
أضللت رأى«أبى ساسان» عن رشدٍ ... وسرت مستخفيا فى جيش «سابورا»
وساد «بهرام جور» وهو لى تبع ... أيامَ يبنى على علاَّتِه « جورا »

فتـــارة أنـــا صِلٌّ فى نكارتـه ... وربما أبصرتنى العينُ عصفورا
تلوح لى الإنس عورا أوْ ذَوِى حولٍ ... ولم تكن قط ، لا حولا ولا عورا
ثم اتعظتُ وصـــارت توبتى مثلا ... من بعد ما عشت بالعصيان مشهورا
حتى إذا انْقَضَّتِ الدنيا ونودِى يا إسـ ... ـرافيل ويحك هلا تنفخ الصورا
أماتنى الله شـــيئا ثـــم أيقظنى ... لمبعـــثى فرزقتُ الخلدَ مـــبرورا

ابن القارح : لله درك يا أبا هدرش ، لقد كنت تمارس أوابدَ ومنديات ! فكيف ألسنتُكم ؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم ، وروم لا يفهمون عن العرب ، كما نجد فى أجيال الإنس ؟

أبو هدرش : هيهات أيها المرحوم ، إنا أهل ذكاء وفِطَن ، ولابد لأحدنا أن يكون عارفا بجميع الألسن الإنسية ، ولنا بعد ذلك لسان لا يعرفه الأنيس .

وأنا الذى أنذرتُ الجن (بالكتاب المنزل) : أدلجتُ فى رفقة من الخابل نريد « اليمن » فمررنا « بيثرب » فسمعنا ﴿قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا﴾[1] وعدت إلى قومى فذكرت لهم ذلك ، فتسرعتْ منهم طوائف إلى الإيمان ...

[ثم ينشد أبو هَدْرَش قصيدة سينية مقيدة ، أبياتها سبعة وستون بيتا ، ويحكى فيها مغامراته فى الشر ، إلى أن تاب واهتدى] [2] .

فيعجب – لا زال فى الغبطة والسرور – لما سمعه من ذلك الجنى ويكره الإطالة عنده فيودِّعه (٢٨٩ – ٣٠٤) .

---

(١) سورة الجن الآيتان ١ – ٢ .

(٢) تجد نصها كاملاً ، فى « رسالة الغفران » ٢٩٨ – ٣٠٤ ذخائر .

مشهد
مع أسد القاصرة ، وذئب الأسلمى

[أبو العلاء ، ممهدًا :]

ويَحُمُّ – يعجل الارتحال – فإذا هو بأسد يفترس من صيران الجنة وحسيلها – قطعان البقر وأولادها – فلا تكفيه هُنَيدة ولا هند – أى : مائة ولا مائتان –

ابن القارح ، يقول فى نفسه : لقد كان الأسد يفترس الشاة العجفاء فيقيم عليها الأيام لا يَطعم سواها شيئًا .

فيلهم الله الأسد أن يتكلم ، وقد عرف ما فى نفسه :

الأسد :يا عبد الله ، أليس أحدكم فى الجنة تقدم له الصحفة وفيها [من الطعام وما يشتهى] فيأكل منها ويلتذ بما أصاب فلا هو مكتف ولا هى الفانية ؟ وكذلك أنا أفترس ما شاء الله فلا تأذى الفريسة بظفر ولا ناب ولكنْ تجد من اللذة كما أجد بلطف ربها العزيز . أتدرى من أنا أيها البزيع – الغلام اللبق – أنا أسد القاصرة » التى كانت فى طريق (مصر) ، فلما سافر « عتبة بن أبى لهب » يريد تلك الجهة ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » أُلهِمْتُ أن أتجوع له أياما ، وجئت وهو نائم بين الرُّفْقةِ فتخللتُ الجماعة إليه ، وأدخِلت الجنة بما فعلتُ .

ويمر بذئب يقتنص ظِباء ..كلما فرغ من ظَبى أو ظبية عادت بالقدرة إلى الحال المعهودة .

ابن القارح ،**وقد علم أن خَطْبَه كخطب الأسد** : ما خبرك يا عبد الله ؟

الذئب :انا الذئب الذى كلّم الأسلميَّ (أهبان بن أوس الأسلمى ، الصحابى رضى الله عنه) على عهد النبى صلى اللهعليه وسلم ، كنت أقيم عشر ليال أو أكثر لا أقدر على العِكرشة ولا القواع – أنثى الأرنب وذكرها – وكنت إذا هممت بعَجِيٍّ المعيز آسَدَ الراعِى علىّ الكلا بَ فرجعتُ إلى الصاحبة مُخرَّقَ الإهاب فتقول : « لقد خطِئت فى أفكارك ، ما خيرَ فى ابتكارك . وربما رُمِيتُ بالسرَوَة – السهم القصير – فنشبتْ فى الأقراب ، فأبيتُ ليلتى لما بى حتى تنزعها السِلْقة – الذائبة – وأنا بآخر النسيس .فلحقتنى بركة محمد صلى الله عليه وسلم » .

. (٣٠٤ – ٣٠٦)

* * *

مشهد

مع الحطيئة العبسى

[أبو العلاء ، ممهدًا :]

فيذهَبُ – عَرَّفهُ الله الغبطة فى كل سبيل – فإذا هو ببيت فى أقصى الجنة ، كأنه حِفشُ أَمَةٍ راعية . وفيه رجلٌ ليس عليه نورُ سكانِ الجنة . وعنده شجرةٌ قميئة ، ثمرها ليس بزاكٍ .

ابن القارح [وما يزال يجهل الرجل] : يا عبد الله ، لقد رضيتَ بحقير ..

الرجل : والله ما وصلت إليه إلا بعد هِياطٍ ومياط ، وشفاعةٍ من « قريش » وددتُ أنها لم تكن .

ابن القارح : مَن أنت ؟

الرجل : أنا « الحطيئة العبسى » .

ابن القارح : بم وصلتَ إلى الشفاعة ؟

الحطيئة : بالصدق .

ابن القارح : فى أى شىء ؟

الحطيئة : فى قولى :

أَبَتْ شفتاى اليومَ إلا تكلُّمًا بهُجْرٍ فما أدرى لمن أنا قائلُهْ
أرى لىَ وجهـا شوَّه الله خلقَه فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّح حاملُـهْ

ابن القارح : ما بالُ قولك :

من يفعل الخيرَ لا يعدمْ جوازيَه لا يذهب العُرف بين الله والناس

لم يُغفرْ لك به ؟

الحطيئة : سبقنى إلى معنـاه الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ، فحُرِمتُ الأجرَ عليه .

ابن القارح : ما شأنُ « الزِّبرقان بن بدر » ؟[1].

الحطيئة : هو رئيس فى الدنيا والآخرة ، انتفع بهجائى ولم ينتفع غيره بمديحى . فيخلفه ويمضى .. (٣٠٧ – ٣٠٨) غفران .

* * *

(١) هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر – رضى الله عنه – مشهور ومعروف . وكان الحطيئة قد مر بحى الزبرقان فى غيابه ، فلم يرض مقامه فيهم وقال يهجوهم :

ملوا قراه وهرته كلابُهم ... ومزقته بأنياب وأضراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

الفصل الرابع

مشاهد مختارة

الأشخاص ، فى المشاهد المختارة :

ابن القارح

بشار بن برد * — شاعر من مخضرمى الأموية والعباسية

امرؤ القيس ، عنترة العبسى ،
علقمة بن عبدة ، عمرو بن كلثوم ،
الحارث اليشكرى ، طرفة ، — شعراء جاهليون
أوس بن حجر ، مهلهل التغلبى .

الأخطل . — شاعر أموى

إبليس ، الزبانية ، خَزَنَةُ النار

مشهد

مع إبليس ، وبشار بن برد

[ابن القارح بعد أن مَرَّ فى أقصى الجنة بالخطيئة والخنساء بدا له أن يطلع على أهل النار] .

* * *

[أبو العلاء ، ممهدًا] .

فيطّلع ، الشيخ ، فيرى « إبليس » ، لعنه الله ، وهو يضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية .

ابن القارح : الحمدُ لله الذى أمكن منك ياعدوَّ الله وعدوَّ أوليائه . لقد أهلكتَ من بنى « آدم » طوائفَ لا يعلم عددَها إلا الله .

إبليس : مَن الرجل ؟

ابن القارح : أنا فلان ابن فلان ، من أهل « حلب » كانت صناعتى الأدب أتقربُ به إلى الملوك .

إبليس : بئس الصناعة ! إنها غُفَّة من العيش لا يتسع بها العيال . وإنها لَمَزَلَّة بالقدم ، وكم أهلكتْ مثلَك ، فهنيئًا لك إذ نجوت .

وإن لى إليكَ حاجة ، فإن قضيتهَا شكرتك يدَ المنون .

ابن القارح : إنى لا أقدر لك على نفع ، فإن الآية سبقتْ فى أهل النار ، أعنى قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ النارِ أصحابَ الجنةِ أنْ أفيضُوا علينا مِنَ الماءِ أو مِمَّا رَزَقكم الله ، قَالُوا إن الله حَرَّمهُما على الكافِرِينَ ﴾[1] .

إبليس : إنى لا أسألك فى شىءٍ من ذلك ، ولكنْ أسألك عن خبرٍ تخبرنيه .

[يسأله اللعين عن الولدان المخلدون .. ثم يستطرد] .

– فما فعل « بشار بن برد » ؟ فإن له عندى يدا ليستْ لغيره من ولد آدم ، كان يفضلنى دون الشعراء ، وهو القائل :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتبيَّنوا يا معشر الأشرار

النـــار عنصره ، وآدم طينة والطين لايسمو سموَّ النـــار

لقد قال الحقَّ ، ولم يزلْ قائله من الممقوتين .

فلا يسكت من كلامه إلا ورجل فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نـزل به من النقم ،

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٠ .

فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار . وإذا هو « بشار بن برد » قد أعطى عينين بعد الكمَهِ ، لينظر إلى مانزل به من النكال .

ابن القارح : يا أبا معاذ ، لقد أحسنت فى مقالك وأسأتَ فى معتقدك . ولقد كنتُ فى الدار العاجلة أذكر بعض قولك فأترحم عليك ظنًا أن التوبة ستلحقك ، مثلَ قولك :

ارجعْ إلى سكن تلوذ به ذهب الزمان وأنت منفرد
ترجو غدًا ، وغدٌ كحاملةٍ فى الحى لا يدرون ما تلد

ثم أنشده قوله :

واهًا لأسماءَ ابنةِ الأشدِّ قامت تراءى إذ رأتنى وحدى
كالشمس بين الزُّرج المنقدِّ ضنت بِخَدٍّ وَحَلَتْ عن خدّ
ثم انثنت كالنفس المرتد وصاحبٍ كالدُّمَّلِ المُبِدِّ
أرقب منه مثل حُمَّى الوِرْدِ حملته فى رقعةٍ من جلدى

. . . . . .

الآن وقع منك اليأس .

وقلت فى هذه القصيدة : السُّبْدِ ، فى بعض قوافيها . فإن كنت أردت جمع سُبَد وهو طائر ، فإن فُعَلاً لا يجمَع على ذلك . وإن كنت سكَّنت الباء فقد أسأت ، لأن تسكين الفتحةِ غير معروف . ولا حجة لك فى قول « الأخطل » :

وما كلُّ مغبون إذا سلْفَ صفقةً براجعِ ما قد فاته برَدادِ

ولا فى قول الآخر :

وقالوا : تُرابىٌّ ، فقلت صدقتم أبى من ترابٍ خَلْقه الله آدما

لأن هذه شواذ . فأما قول « جميل » :

وصاحَ بين من بثينة ، والنوى جميع بذاتِ الرضم صَرْدٌ محجَّلُ

فإن من أنشده بضم الصادِ مخطىء ، لأنه يذهب إلى أن جميلاً أراد الصرَدَ ، فسكَّن الراءَ . وإنما هو صَرْدٌ ، أى خالص .. يعنى غرابا أسودَ ليس فيه بياض ، ومحَجَّل : مقيد ، لأن حلقة القيدِ تُسَمى حِجْلاً ..

بشار : يا هذا ، دعنى من أباطيلك ، فإنى لمشغولٌ عنك .

* * *

مشهد
مع امرئ القيس

ويسأل « عن امرئ القيس بن حُجْر » . فيقال :
ها هو ذا بحيث يسمعك .

ابن القارح : يا أبا هند ، إن رواة البغداديين ينشدون فى (قفا نبكِ) هذه الأبيات بزيادة الواو فى أولها ، أعنى قولك :

* وكأن ذُرَى رأسِ المجيمر غدوةً *

وكذلك : * وكأنَ مُكاكيَّ الجـواء ..
* وكأن السباع فيه غرقى ..

امرؤ القيس : أبعدَ الله أولئك ! لقد أساءوا الرواية . وإذا فعلوا ذلك فأى فرق بين النظم والنثر ؟ وإنما ذلك شىء فعله من لا غريزة له فى معرفة وزن القريض ، فظنّه المتأخرون أصلا فى المنظوم . وهيهات هيهات !

ابن القارح : أخبرنى عن قولك :

* كبِكرِ المقاناةِ البياض بصفرة *

ماذا أردت بالبكر ؟ فقد اختلف المتأولون فى ذلك فقالوا : البيضة ، وقالوا : الدرة ، وقالوا : الروضة ، وقالوا : الزهرة ،وقالوا :البردية .. وكيف تنشد : البياضِ ، أم البياضَ ، أم البياضُ .

امرؤ القيس : كل ذلك حسَن ، وأختار : البياضِ ، بالكسر .

ابن القارح : لو شرحتُ لك ما قال النحويون فى ذلك لعجبت .
وبعض المعلمين ينشد قولك :
* من السيل والغُثاء فَلكَة مِغزلِ *
فيشدد الثاءَ .

امرؤ القيس : إن هذا لجهول ، وهو نقيض الذين زادوا الواو فى أوائل الأبيات [المذكورة آنفا]: أولئك أرادوا النَسق فأفسدوا الوزن ، وهذا البائس أراد أن يصحح الزِّنة فأفسد اللفظ .

ابن القارح : فأخبرنى عن كلمتك الصادية ، والضادية ، والنونية التى أولها :
لمن طَلَلٌ أبصرتـــه فشجانى كخط زبور فى عسيب يمانِ

لقد جئت فيها بأشياء ينكرها السمع .. هل كانت غرائزكم لا تحس بهذه الزيادة ؟ أو كنتم مطبوعين على إتيان مغامض الكلام وأنتم عالمون بما يقع فيه ؟

امرؤ القيس : أدركنا الأولين من العرب لا يحفلون بمجيء ذلك ، ولا أدرى ما شَجَن عنه . فأما أنا وطبقتى فكنا نَمُر فى البيت حتى نأتى إلى آخره ، فإذا فنى أو قارب ، تبيَّن أمره للسامع .

ابن القارح : أخبرنى عن التسميط المنسوب إليك ، أصحيح هو عنك ؟ وينشده الذى يرويه بعض الناس :

يـا صحبَنا عرِّجـــوا تقِـــفْ بكـم أُسَجُ
مَهْـــرِيَّةٌ دُلُـــــجُ فـــى ســـيرها ، مُعُجُ
طالت بها الرِّحَلُ
فعرَّجـــوا كلهـــمْ والهـــمُّ يَشْغَلُهُـم
والعِيسُ تحملهـــــم ليســـت تُعَلِّلهُـــم
وعاجت الرُّمُلُ
يا قَوْم إن الهـــــوى إذَا أُصـــــابَ الفتَى
فى القلـــب ثـم ارتقى فَهَدَّ بعـضَ القُـــوَى
فقد هَوَى الرَّجُلُ

امرؤ القيس : لا والله ما سمعت هذا قط ، وإنه لقرِىٌّ لم أسلكه ، وإن الكذب لكثير . وأحسب هذا لبعضِ شعراء الإسلام . ولقد ظلمنى وأساء إلىَّ ، أبْعَدَ كلمتى التى أولها :

ألا أنعم صباحًا أيها الطللُ البالى وهل ينعمَنْ من كان فى العصر الخالى

وقولى :

خليلىَّ مُرَّا بى عـلى أُمِّ جندب لأقضىَ حاجاتِ الفؤاد المعذبِ

يُقال لى مِثلُ ذلك ؟ والرجَزُ من أضعفِ الشعرِ، هذا الوزنُ من أضعفِ الرجز .

ابن القارح : وقد عجب لما سمع : كيف ينشد قولك :

جالتْ لتصرعنى فقلت لها اقصِرى إنى امرؤٌ صرعى عليك حرام

أتقول :حرامُ ، فتُقوِى ؟ أم تقول : حرامِ ، فتخرجه مخرج : حَذامِ

وقطامِ ؟ وقد كان بعض علماء الدولة الثانية يجعلك لا يجوز الإقواء عليك .

امرؤ القيس : لا نكرة عندنا فى الإقواء .

ابن القارح : وإنا لنروى لك بيتًا ما هو فى كل الروايات ، وأظنه مصنوعًا ، لأن فيه ما لم تجر عادتك بمثله ، وهو قولك :

وعمرو بن درماء الهمام إذا غدا بصارمه يمشى كمشية قسْوَرَا

امرؤ القيس : أبْعَدَ الله الآخر ، وإن نسبة مثل هذا إلىَّ ، لأعدُّه إحدى الوصمات .

[أبو العلاء مفسرًا] :

وإنما أنكر حذفَ الهاء من (قَسورَة) ، لأنه ليس بموضع حذف . وقَلَّ ما يُصابُ فى أشعار العرب مثل ذلك . فأما قول القائل :

إن ابن حارثَ إنْ أشْتَقْ لرؤيته أو أمتدحه ، فإن الناسَ قد علموا

فليس من هذا النحو ، إذ كان التغيير إلى الأسماء الموضوعة ، أسرعَ منه إلى الأسماء التى هى نكرات ، إذ كانت النكرة أصلاً فى الباب .

(٣١٣ - ٣٢٢) غفران

* * *

مشهد
مع عنترة العبسى

ابن القارح ، وهو ينظر فإذا « عنترة العبسى » متلدد فى السعير :

: مالك يا أخا عبس ؟ كأنك لم تنطق بقولك :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر ، بالمشُوفِ الْمُعْلَمِ
بزجاجة صفـــراءَ ذات أسِرَّة قُرِنت بأزهـر فى الشـمال مُفدَّم

وإنى إذا ذكرت قولك :

* هل غادر الشعراء من متردم *

لأقول : إنما قيل ذلك وديوان الشعر قليل محفوظ . فأما الآن فقد كثرت على الصائد ضياب . ولو سمعتَ ما قيل بعد مبعث النبى ﷺ لعتبت نفسك على ما قلت ، وعلمت أن الأمر كما قال« حبيب بن أوس » :

فلو كان يَفنَى الشعرُ أفناه ما قَرتْ حياضُك منه فى العصور الذواهب
ولكنه صَوْبُ العقـول إذا انجلت سحائبُ منـه أعقبت بسحائبِ

عنترة : وما حبيبكم هذا ؟

ابن القارح : شاعر ظهر فى الإسلام .

— وينشده شيئا من نظمه —

عنترة : أما الأصل فعربى ، وأما الفرعُ فنطق به غبى . وليس هذا المذهب على ما تعرف قبائل العرب .

ابن القارح ، ضاحكا : إنما يُنكر عليه المستعار . وقد جاءت العارية فى أشعار كثير من المتقدمين ، إلا أنها لا تجتمع كاجتماعها فيما نظمه « حبيب بن أوس » .

ثم يسأل عنترة : فما أردت بالمشوف المعلم ؟ الدينار ، أم الرداء ؟

عنترة : أى الوجهين أردتَ ،فهو حسن ولا ينتقض .

ابن القارح : لقد شقَّ علىَّ دخولُ مثلك إلى الجحيم . وكأنّ أذنى مُصْغِية إلى قينات « الفسطاط » وهى تغرد بقولك :

أمِنْ سُمَيَّة دمعُ العين تذريفُ ؟ لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
تجللتنى إذ أهوى العصَا قِبَلى كأنهـا رشأٌ فى البيت مَطْروف
العبدُ عبـــدكُمُ والمـــالُ مالكمُ فهل عذابُك عنى اليـومَ مصروف

وإنى لأتمثل بقولك :

ولقـــــد نزلتِ فلا تظنى غيره منى بمنزلة الْمُحَـبِّ المكـــرَم

ولقد وُفِّقتَ فى قولك : المحَب ، لأنك جئت باللفظ على ما يجب فى « أحببت » ، وعامة الشعراء يقولون : أحببت ، فإذا صاروا إلى المفعول قالوا : محبوب . قال « زهير بن مسعود الضبى » :

واضحةُ الغُرةِ محبـــوبة والفرس الصالح محبوبُ

وقال بعض العلماء : لم يُسمع بـ « مُحَبّ » إلا فى بيت عنترة . والذى قال : أحببت ، ليجب عليه أن يقول : مُحَبّ ، إلا أن العرب اختارت : أحَبَّ ، فى الفعل ، وقالت فى المفعول :محبوب . وكان « سيبويه » ينشد هذا البيت بكسر الهمزة .

إحِبُّ لحبها السودانَ حتى إحِبَّ لحبِّها سُودَ الكلابِ

فهذا على رأى من قال « مِغيرة » ، فكسر الميم على معنى الإتباع ، وليس هو عنده على : حببت أحب . ويقال إن « أبا رجاء العطاردى » قرأ : ﴿فاتبعونى يَحببكُم الله﴾[1] بفتح الياء ...

ويتابع الشيخ الإملاء ، وعنترة صامت :

... .

والباب فيما كان مضاعفًا متعديًا أن يجىء بالضم كقولك : عددت أعُد ، ورددت أرُد . وقد جاءت أشياء نوادر كقولهم : شددت الحبل أشُدّ وأشِد ، ونممت الحديث وأنمِ وعللت القوم أعلُ وأعِل . وإذا كان غير متعد فالبابُ الكسرُ كقولهم : حلّ عليه الدين يحل ، وجل الأمرُ يجل . والضم فى المتعدى أكثر من الكسر فيما كان متعديا كقولهم : شح يشح ويشح : وشبّ الفرس يشُب ويشِب ، وصح الأمر يصِح ويصُح ، وفحّت الحيّة تفحِ وتفُح ، وجمّ الماء ويجُم ، وجدّ فى الأمر يجِدّ ، ويجُدُّ .. فى حروف كثيرة .

. (٣٢٢ - ٣٢٧)

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٣ .

مشهد
مع علقمة بن عبَدة

ابـن القـــارح ، ينظر فإذا « علقمة بن عبدة » فيقول :

– أعزز عليّ بمكانك ما أغنى عنك سمطا لؤلؤك – يعنى قصيدته التى على الباء :

• طحا بِك قلبٌ فى الحسانِ طروبُ •

والتى على الميم :

• هل ما علمت وما استُودعت مكتومُ •

فبالذى يقدر على تخليصك ، ما أردت بقولك :

فـــلا تعـدِلى بينى وبـــين مغمَّرٍ سقتكِ رَوَايا المزْنِ حين تصوب

وما القلب ، أم ما ذكرها ربعيـــةً يُخط لهـــا مـــن ثرمـداء قَلِيبُ

أعنيت بالقليب ، هذا الذى يُوَرد أم القبر ؟ ولكلٍّ وجه حسن .

علقمة : إنك لتستضحك عابسا ... فعليك شغلك أيها السليم .

ابن القارح : لو شفعتْ لأحد أبيات صادقة ليس فيها ذكر الله سبحانه لشفعت لكَ أبياتك فى وصف النساء . أعنى قولك :

فإن تسألونى بالنســـاء فإننـى بصير بأدواء النســـاء طبيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله فليس لـــه فى ودهـــن نصيب

يردن ثراء المـــال حيث علمنـــه وشرخ الشباب عندهـــن عجيب

ولو صادفت منك راحة لسألتك عن قولك ... (٣٢٧ – ٣٢٩)

وفى كل حىٍّ قد خبطَّ بنعمـــة فحُق لشاسٍ من نَداكَ ذَنوبُ

أهكذا نطقتَ بها طاءً مُشَدَّدَةً ، أم قالها عربى سواك ؟ فقد يجوز أن يقول الشاعر الكلمة فغيّرها عن تلك الحال الرواة .

ويتابع السؤال بعد السؤال ، وعلقمة لا يجيب ...

مشهد
مع عمرو بن كلثوم

ابن القارح ، متسائلا : **فليت شعرى ما فعل عمرو بن كلثوم ؟ فيقال : ها هو ذا من تحتك إن شئت أن تحاوره فحاوره .**

ابن القارح لعمرو : كيف أنت ايها المصطبح بصحن الغانية ، والمغتبق من الدنيا الفانية ؟ لوددتُ أنك لم تساند فى قولك :

كأن متونهن متون غُدْرٍ تُصَفِّقُها الرياح إذا جَرَيْنا

عمرو : إنك لقرير العين لا تشعر بما نحن فيه فاشغل نفسك بتمجيد الله واترك ما ذهب فإنه لا يعود . وأما ذكرك سنادى فإن الإخوة ليكونون ثلاثة أو أربعة ، ويكون فيهم الأعرج أو الأبخق فلا يُعابون بذلك ، فكيف إذا بلغوا المائة فى العدد ورهاقها فى المَدَد ؟

ابن القارح : أعزِزْ علىَّ بأنك قُصِرتَ على شرب حميم ، وأُخِذت بعملك الذميم ، من بعد ما كانت تُسَبَّأ لك القهوة من خُصّ وغير خص ... وقالوا فى قولك : « سخينا » قولين : أحدهما أنه فعِلنا من السخاء والنون نون المتكلمين . والآخر من الماء السخين ، لأن « الأندرين وقاصرين » كانتا فى ذلك الزمن للروم ، ومن شأنهم أن يشربوا الخمر بالماء السخين فى صيف وشتاء .

« وقد سئل بعض الأدباء « بمدينة السلام » عن قولك :

فما وَجَدَتْ كوجدى أُمُّ سَقْب أضلته فرجَّعت الحنينا

ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة إلا جنينا

هل يجوز نصب شمطاء ؟ فلم يجب بشىءٍ . وذلك يجوز عندى من وجهين : أحدهما على إضمار فعلٍ دل عليه السامعَ معرفته به ، كأنك قلت : « ولا أذكر شمطاء » . أى أن حنينها شديد ، ويجوز أن يكون على قولك : « ولا تنس شمطاء » أو نحو ذلك من الأفعال ، وهذا كقولك : إن كعب ابن سامة جواد ولا حاتمًا ؛ أى : ولا أذكر « حاتما » ، أى أنه جواد عظيم الجود ، قد استغنيت عن ذكره باشتهاره . والآخرُ : أن يكون من وَلاه المطر إذا سقاه السُّقيةَ الثانية . أى : هذا الحنين اتفق مع حنينى ، فكأنه قد صار له وليًّا . ويحتمل أن يكون من : وَلَى يَلِى ، وقلب الياء على اللغة الطائية » (٣٢٩ – ٣٣٢) .

[عمرو بن كلثوم لا يجيب بكلمة].

* * *

مشهد
مع الحارث اليشكرى

ابن القارح ينظر فإذا « الحارث اليشكرى » فيقول :

لقد أتعبت الرواة فى تفسير قولك :

زَعَموا أنّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مُوالٍ لنـــا ، وأنّا الــوَلاءُ

وما أحسبك أردت إلا العير ، الحمار .

ولقد شنعت هذه الكلمة بالإقواء ، ويجوز أن تكون لغتك أن تقف على آخر البيت ساكنا ، وإذا فعلت ذلك اشتبه المطلقُ بالمقيد ، وصارت هذه القصيدة مضافة إلى قول الراجز :

دارٌ لِظَمْيـا وأين ظَمْيـــا أَهَلَكَتْ أم هىَ بَيْن الأحْيا ؟

وبعض الناس ينشد قولك :

فعِشْنَ بخـــيرٍ لا يَضرْ كَ النَّوْكُ ما أُعطيتَ جَـــدًّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من : عاش يعيش ، وذلك قليل ردىء ، ومنه قول الآخر :

متى تَشْئى يا أم عثمان تصرمى أوذنْكِ إيذانَ الخليطِ المُزايِلِ

وإنما الكلام : متى تشائى ، لأن هذا الساكن إذا حُرِّك عاد الساكن المحذوف . ولقد أحسنت فى قولك :

لا تكسع الشـــول بأغبارهـــا إنـــك لا تدرى من النـــاتج

وقد كانوا فى الجاهلية يعسكون ناقة الميت على قبره . ويزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بُعثت له فيَركَبُها ... وهيهات : بل حُشِروا عُراة حفاة غُرْلا .. وتلك البَلِيَّةُ التى ذكرتَ فى قولك :

أُتلهَّى بها الهواجِرَ إذ كُلُّ (م) ابـــنِ هَـــمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْيَاءُ »

. (٣٣٢ - ٣٣٤)

[الحارث اليشكرى لا يجيب]

* * *

مشهد
مع طرفة بن العبد

ويعمد ، ابن القارح – لسؤال « طرفة بن العبد »
فيقول :

ابن القارح : يا ابن أخى يا طرفة ، خفَّف الله عنك ، أتذكر قولك :

كريم يُرَوِّى نفســـه فى حياته ستعلم إن مُتنا غدًا أيُّنا الصَّدِى

وقولك :

أرى قبر نحَّام بخيـــلٍ بماله كَقَبرِ غَوِىٍّ فى البطالة مُفسدِ

وقولك :

متى تأتِنى أصبَحْك كأسا روِيَّةً وإن كنت عنها غانيا فاغنَ وازددِ

فكيف صَبوحُك الآن وغَبوقُك ؟ إنى لأحسبهما حميما .

وهذا البيت يتنازَع فيه ، فينسبه إليك قوم ، وينسبه آخرون إلى « عدى بن زيد » وهو بكلامك أشبه . والبيت :

وأصفرَ مَضبُوح نَظَرْت حَوِيره على النار واستودعتُه كفَّ مُجمِدِ

وشدَّ ما اختلف النحاة فى قولك :

ألاأيهاذا الزاجِـرِى أحضرَ الوغَى وأن أشهد اللذاتِ، هل أنت مخلدى

وأما « سيبويه » فيكره نصب « أحضر » لأنه يعتقد أن عوامل الأفعال لا تُضمَر ، وكان الكوفيون ينصبون « أحضر » بالحرف المقدر ، ويقوى ذلك : « وأن أشهد اللذات » فجئت بـ : أنْ ، وليس هذا بأبعد من قوله :

مَشائيمُ ليسوا مصلحين قبيلةً ولا ناعب إلا بِبَيْنٍ، غُرَابُهَا

وقد حكى « المازنى » ،أنه سمع « قُطربًا » يحكى عن بعض العرب نصب « أحضر » .

ولقد جئتَ بأعجوبة فى قولك :

لو كان فى أملاكنا مَلِكٌ يَعصِر فينـــا ، كالذى تعصِرْ

لاجتبتُ صَحْنَى العـــراق على حَرفِ أمـــونٍ ، دَفُّهـــا أزورْ

متَّعَنى يـــوم الرحيـــل بهـــا عـــود تَنَقَّاه القِـــداح ، يَسَرْ

ولكنك سلكت مسالك العرب ،فجئت بِقَرِىٍّ كلمة المرقش – الأكبر – :

هل بالديار أن تجيب صممْ لو كان حيًّا ناطقا كلَّمْ

وقول « الأعشى » : « أقصِرْ فكلُّ طالبٍ سَيَمَلُّ »

على أن مرقشا خلط في كلمته فقال :

ماذا علينا أن غزا مَلِكٌ من آلِ جَفنةَ ظالمٌ مرغِمْ

وهذا خروج عما ذهب إليه « الخليل » .

ولقد كثرتْ في أمرك أقاويلُ الناس : فمنهم من يزعم أنك فى مُلك « النعمان » اعتقِلتَ ، وقال قوم : بل الذى فعل به ما فعل « عمرو بن هند » .

لو لم يكن لك أثر فى العاجلة إلا قصيدتك التى على الدال – يعنى المعلقة – لكنت أبقيت أثرا حسنا .

طرفة : وددت أنى لـم أنطق مصراعـا وعدمتُ فى الـدار الزائلة إمْراعا ، ودخلت الجنة ، وكيف لى بِهَدْءٍ وسكون ، أركن إليه بعض الركون ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطَبا﴾[1] ٣٣٤ – ٣٣٩ .

* * *

(١) سورة الجن الآية ١٥ .

مشهد
مع أوس بن حجر

[أبو العلاء ، ممهدًا]

ويلفِتُ عنقه يتأمل ، فإذا هو « بأوس بن حجر » .

ابن القارح : يا أوس ، إن أصحابك لا يجيبون السائل ، فهل لى عندك من جواب ؟ فإنى أريد أن أسألك عن أبيات فى قصيدتك التى أولها :

هل عاجلٌ من متاع الحىِّ منظور أم بيتُ دومةَ بعد الوصل مهجور

– تُروَى كذلك فى قصيدة « النابغة » الذبيانى – التى أولها :

ودِّعْ أُمـــامةَ والتوديعُ تعذيرُ وما وداعُك مَن قَفَّت به العِيرُ

وكلاكما معدود فى الفحول ، فعلى أىِّ شىء يُحمل ذلك ؟

أوس : قد بلغنى أن « نابغة بنى ذبيان » فى الجنة ، فاسأله عما بدا لك فلعله يخبرك ، فإنه أجدَر بأن يعىَ هذه الأشياء ، أما أنا فقد ذهلت : نارٌ توقَد ، وبنان يُعقد . إذا غلب على الظمأ رُفِع لى شىء كالنهر ، فإذا اغترفت منه لأشرب ، وجدتهُ سعيرا مضطرما ، فليتنى كنتُ « دَرِمًا » – وهو الذى يقال فيه : أُوْدَى درم[1] .

ابن القارح : إنما أردت أن آخذ عنك هذه الألفاظ ، فأُتحفَ بها أهلَ الجنة فأقول : قال لى أوس ، وأخبرنى أبو شريح .

وكان فى عزمى أن أسألك عما حكاه « سيبويه » فى قولك :

* تُواهِقُ رجلاها يداه *[2] .

فإنى لا أختار أن تُرفَع الرجلانِ واليدان ، ولم تدعُ إلى ذلك ضرورة ، لأنك لو قلت :

* تواهق رجليها يداه * لم يختل الوزن ولعلك ، إنْ صَحَّ قولك لذلك ، أن تكون طلبتَ المشاكهة . وهذا المذهب يقوى إذا رُوى : * يداها * بالإضافة إلى المؤنث ، فأما فى حال الإضافة إلى ضمير المذكر فلا قوة له .

وإنه لكارهٌ قولك :

* والخيل خارجة من القسطال *

أخرجت الاسم إلى مثال قليل ، لأن (فعلالا) لم يجئ فى غير المضاعف .. وقد حُكِى : ناقة بها خَزعال ، أى ظلع (٣٣٩ – ٣٤٢) .

---

(١) هو : درم الشيبانى ، طلبه النعمان بن المنذر وجعل لمن يأتيه به جائزة ، فأدركه قوم فمات فى أيديهم قبل أن يبلغوا به النعمان . فقيل : أودى درم . وضرب به المثل .

(٢) البيت من شواهد سيبويه . انظر الشرح فى (رسالة الغفران) هامش ص ٣٤١ ذخائر .

مشهد

مع الأخطل التغلبى
- وإبليس يدافع عنه -

[أبو العلاء ، ممهدًا] :
وينظر الشيخ ، فإذا هو برجل يتضور . فيقول :
من هذا ؟ فيقال : الأخطل التغلبى .

ابن القارح : ما زالت صفتُك للخمر ، حتى غادَرتْك أُكُلاً للجَمر . كم طربت السادات على قولك :

أناخوا فجَرُّوا شاصياتٍ كأنها ... رجالٌ من السودان لم يتسربَلُوا
فقلت اصبَحونى لا أبا لأبيكمُ ... وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
فصبوا عُقارا فى الإنـــاء كأنها ... إذا لحوهـــا جـــذوة تتأكَّل
وجـــاءوا ببيسانية هى بعدمـــا ... يعلُّ بهـــا الساقى ألَذُّ وأسهل
تمرُّ بها الأيدى سَنِيحا وبارحا ... وتُوضَعُ بـ (اللهم) حَىَّ ، وَتُحْمَل
فتوقف أحيانـــا فيفصل بيننا ... غنـــاءُ مغن أو شـــواءٌ مُرعبَل
فلذَّتْ لمرتاح وطابتْ لشارب ... وراجَعَنى منهـــا مراحٌ وأخْيَلُ
تدب دبيبا فى العظـــام كأنه ... دبيب نِمالٍ فى نَقَا يتهيَّلُ
فقلت اقتلوهـــا عنكم بمزاجهـــا ... وحُبَّ بهـــا مقتولةً حين تُقتـــل

الأخطل : إنى جررتُ الذارع ولقيتُ الدارع ، وهجرت الآبدة ، ورجوت أن تُدعى النفسُ العابدة ، ولكن أبت الأقضية .

ابن القارح : أخطأت فى أمرين : جاء الإسلام ولم تدخل فيه ، ولزمتَ أخلاق سفيه ، وعاشرت « يزيد بن معاوية » ، وأطعت نفسك الغاوية ، وآثرت ما فنى على باق ، فكيف لك بالإباق ؟

الأخطل ، وهو يزفر زفرة تعجب لها الزبانية :
آه على أيام « يزيد » ، أسوف عنده عنبرا ، وأمزح معه مزح خليل ، فيحتملنى احتمال الجليل ، وكم ألبسنى من مَوْشِىّ ، أسحبه فى البُكرة أو العشى . وكأنى بالقيان الصادحة بين يديه تُغَنِّيه بقوله :

ولهـــا « بالماطـــرون » إذا أنفذ النَّملُ الذى جمعا
خلفة حتى إذا ظهـــرت سكنت من « جِلِّقٍ » بِيَعا
فى قبـاب حـــول دَسْكَرة حولها الزيتـــون قد ينعا
وقفتْ للـــبـــدر ترقبـه فـإذا بالبـــدر قد طلعا

ولقد فاكهتُه فى بعض الأيام وأنا سكرانُ فقلت :

إسْلَمْ سلمت أبا خالد وحيـــاك ربـك بالعنقَزِ
أكلت الدجـــاج فأفنيتها فهل فى الخنانيص من مغمَز

فما زاد عن ابتسام ، واهتز للصلة اهتزاز الحسام .

ابن القارح : مِن ثَم أُتيتَ . أما علمت أن هذا الرجل عائد ، وفى جبال المعصية ساند ؟ فعلام اطلعتَ من مذهبه : أكان موحدا ، أم وجدته ملحدا ؟

الأخطل : كانت تعجبه هذه الأبيات :

أخالد هاتى خبرينى وأعلنى حديثك ، إنى لا أُسِرُّ التناجيا
حديثَ أبى سُفْيَان لما سما بها إلى أُحُدٍ حتى أقام البواكيا
وكيف بغى أمرًا « علىٌّ » ففاته وأورثه الجد السعيد « معاويا »
وقـومى فعُلِّينى على ذاك قهـــوةً تحلَّبهـــا العيسىُّ كرما شـــآميا

ابن القارح : عليك البَهْلَةُ ! قد ذهلتْ الشعراء من أهل الجنة والنار عن المدح والنسيب ، وما شُدِهْتَ عن كُفْرِك ولا إساءَتِك .

إبليس ، يسمع ذلك الخطاب فيقول للزبانية :

– ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك .

الزبانية : كيف زعمت ذلك يا أبا مُرة ؟

إبليس ، مشيرًا إلى ابن القارح : ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ؟ قد شغلكم وشغل غيركم عما هو فيه : فلو أن فيكم صاحبَ نحيزة قوية ، لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر .

الزبانية : لم تصنع شيئًا يا أبا زوبعة ، ليس لنا على أهل الجنة سبيل .

ابن القارح يشتم إبليس ويلعنه ويظهر الشماتة به .

إبليس ، لابن القارح : ألم تُنهوا عن الشمات يابنى آدم ؟ ولكنكم بحمد الله مازجرتم عن شىء إلا وركبتموه .

ابن القارح : أنت بدأت آدم بالشماتة والبادئ أظلم .

ثم يعود إلى كلام « الأخطل » فيقول :

– أأنت القائل هذه الأبيات ؟ :

ولستُ بصائم رمضان طوعا ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحى

[وينشده بقية الأبيات][1].

الأخطل : أجـــل ، وإنى لنـــادم ، وهل أغنت الندامـــة عن أخـــى كُسَعٍ ؟ (٣٤٥ – ٣٥٠) .

* * *

(١) تجدها فى رسالة الغفران : ٣٥٠ ط ١٠ ذخائر .

مشهد

مع مهلهـل التغلبى

[أبو العلاء ، ممهدًا] :

وَيَملُّ الشيخ من خطاب أهل النار . فينصرف إلى قصره المشيد بالجنة ، فإذا صار على بُعْدِ ميلٍ أو ميلين ، ذكر أنه ما سأل عن « مهلهل التغلبى » ولا عن المرقِّشين ، وأنه أغفَلَ « الشنفرى » وتأبَّطَ شرا ..

ابن القارح : مناديًا وقد رجع على أدراجِه : أين عدى بن ربيعة ؟

خزنة النـار : زِدْ فى البيان .

ابن القارح : الذى يستشهد النحويون بقوله :

ضربت صدرَها إلىَّ وقالت يا عديا لقد وَقَتْكَ الأواقـى

وقد استشهدوا له بأشياء كثيرة (وينشد بعضها) .

خزنة النـار : إنك لتُعرِّف صاحبَك بأمر لا معرفة عندنا منه : ما النحويون ؟ وما الاستشهاد ؟ وما هذا الهذيان ؟ نحن خزنة النار ، فبين غرضَك تُجَبْ إليه .

ابن القارح : أريد المعروف بمهلهل التغلبى ، أخى كليب وائل .

خزنة النـار : ها هو ذا يسمع حوارَك فقلْ ما تشاء .

ابن القارح لمهلهل: يا عدىَّ بن ربيعة ، أعزِز علىَّ بولوجِك هذا المولج ! لو لم آسف عليك إلا لأجل قصيدتك التى أولها :

أليلتَنا بذى حُسَمٍ أنِيرِى إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحُورى

لكانت جديرة أن تطيل الأسف عليك .

وقد كنتُ إذا أنشدتُ أبياتك فى ابنتك المزوَّجةِ فى « جنبٍ » تَغْرَوْرِقُ من الحزن عيناى[1] .

---

(١) يشير أبو العلاء إلى قول مهلهل فى ابنته :

عز على تغلب الذى لقيت أخت بنى المالكين من جشمْ

أنكحها فقدها الأراقم فى «جنب» وكان الحباء من أدم

ليسوا بأكفائنا الكرام ولا يغنون من عيلة ولا عـــدم

وجنب : حى وضيع من أحياء مذحج . .

فأخبرنى لم سُمِّيت مهلهلا ؟ فقد قيل إنك سميت بذلك لأنك أول من هلهل الشعر ، أى رققه .

مهلهل : إن الكذب لكثير . وإنما كان لى أخ يقال له « امرؤ القيس » – بن ربيعة – فأغار علينا « زهير بن جناب الكلبى » ، فتبعه أخى فى زرافة من قومه ، فقال فى ذلك :

لما تَوقَّل فى الكُراع هَجِينُهم هلهلتُ أثأر مالكـا أو صِنْبلا
وكأنه بـازٌ علَتْـه كَبرةٌ يهدى بِشكَّتِه الرعيـلَ الأوَّلا

– هلهلت : أى قاربت ، ويقال : توقفت . ويعنى بالهجين : زهير بن جناب – فسُمى « مهلهلا » . فلما هلك شُبهت به فقيل لى : مهلهل .

ابن القارح : الآن شفيت صدرى بحقيقة اليقين . فأخبرنى عن هذا البيت الذى يُروَى لك :

أرْعَدوا ساعةَ الهِيـاج وأبْرَقْـ ـنا كما تُوعِدُ الفُحولُ الفُحولا

فإن « الأصمعى » كان يُنكره ويقول إنه مولد ، وكان « أبو زيد » يستشهد به ويثبته .

مهلهل : طال الأبدُ على لُبَدٍ . لقد نسيت ما قلت فى الدار العاجلة ، فما الذى أنكرَ منه ؟ .

ابن القارح : زعم الأصمعى أنه لا يقال أرعدَ وأبرق ، فى الوعيد ولا فى السحاب .

مهلهل : إن ذلك لخطأ من القول . وإن هذا البيت لم يقله إلا رجل من جِذْمِ الفصاحة ، إما أنا وإما سواى . فخُذْ به وأعرِض عن قول السفهاء (٣٥١ – ٣٥٥) .

* * *

[يتابع ابن القارح السؤال عن الشعراء : « المرقِّشين » ، و « الشنفرى » ، و « تأبط شرا » . فيلقاهم واحدًا بعد الآخر ، ويحاورهم فيما يشغل العلماء من أشعارهم وأخبارهم ، وقلَّ منهم مَن أجاب] .

وتنتهى رحلته إلى الجحيم .

* * *

الفصل الخامس

عَودة إلى الجنة

[في الطريق إليها]

- مع أبينا آدم .
- روضة الحيات .
- جنـــة الرُّجَّز .
- خـتـــــام .

مشهد

مع أبينا آدم

[بعد رحلة الجحيم يعود ابن القارح إلى الجنة ، فيلقى فى الطريق إليها أبانا آدم عليه السلام] .

ابن القارح :يا أبانا ، صلى الله عليك ، قد رُوى لنا عنك شعرٌ منه قولك :

نحن بنو الأرض وسُكانُها منها خُلِقْنا وإليهـــا نعـــودْ
والسعدُ لا يبقـــى لأصحـــابه والنحسُ تمحـوه ليـــالى السعودْ

آدم :إن هذا القول حق ، وما نطقه إلا بعضُ الحكماء . ولكنى لم أسمع به حتى الساعة .

ابن القارح : فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت ، فقد علمتُ أن النسيان متسرع إليك . وحسبُك شاهدا على ذلك الآية المتلُوَّة فى القرآن الكريم : ﴿ولقد عهِدْنا إلى آدمَ من قبلُ فنسىَ ولم نَجِدْ له عزما﴾ سورة طه الآية ١١٥ .
وقد زعم بعضُ العلماء أنك إنما سُميتَ إنسانا لنسيانك . واحتج على ذلك بقولهم فى التصغير : أُنَيْسِيان ؛ وفى الجمع أناسىٌّ . وقد رُوِى أن الإنسان من النسيان ، عن « ابن عباس » ، وقال « الطائى » – أبو تمام :

لا تَنسيَنْ تلك العهودَ وإنما سمِّيتَ إنســـانا لأنك ناسِ

وقرأ بعضُهم : ﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾[1] بكسر السين ، يريدُ : الناسىَ ، فحذَفَ الياءَ كما حُذِفت فى قوله تعالى : ﴿سَواءً العاكِفُ فيه والبادِ﴾[2] . فأما البصريون فيعتقدون أن الإنسان من الإنس ، وأن قولهم فى التصغير : أُنيسيان ، شاذ ؛ وقولهم فى الجمع : أُناسىّ ! أصلهُ أناسينُ ، فأبدلت الياءُ من النون . والقولُ الأولُ أحسن .

آدم : أبيتُم إلا عقوقا وأذيَّة ! إنما كنت أتكلم بالعربية وأنا فى الجنة ، فلما هبطتُ إلى الأرض نُقل لسانى إلى السريانية . فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكتُ ، فلما ردَّنى الله ، سبحانه وتعالى ، إلى الجنة ، عادت على العربية . فأىَّ حينٍ نظمتُ هذا الشعر : فى العاجلة أم الآجلة ؟ والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة ، ألا ترى قوله : « منها خُلِقنا وإليها نعود » فكيف أقول هذا المقال ولسانى سريانى ؟ وأما الجنة قبل أن أخرج منها ، فلم أكن

---

(١) من سورة البقرة الآية : ١٩٩ . وقراءة الجمهور برفع الناس .
(٢) من سورة الحج الآية : ٢٥ .

أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حُكم به على العباد ... وأما بعد رجوعى إليها ، فلا معنى لقولى : « وإليها نعود » لأنه كذب لا محالةَ ، ونحن معاشرَ أهلِ الجنة خالدون مخلدون .

ابن القارح : إن بعض أهلِ السِّيَرِ يزعم أن هذا الشعر وجده « يعرُبُ » فى متقدم الصحف بالسريانية ، فنقَله إلى لسانه ، وهذا لا يمتنع أن يكونِ .

وكذلك يروون لكَ ، صلى الله عليك ، لما قتلَ « قابيلُ » « هابيلَ » :

تغيَّرت البلادُ ومن عليها فوجـهُ الأرض مغبَرٌّ قبيحُ
وأوْدى رَبْعُ أهليهـــا فبانـوا وغـودر فى الثرى الوجـهُ المليحُ

وبعضُهم ينشد : « وزال بشاشةُ الوجه المليحِ » على الإقواء .

وفى حكايةِ معناه ما أذكرُ ، أن رجلا من بعض ولدِك يعرف بابن دُريد ، أنشد هذا الشعرَ وكانت روايتُه :

« وزالَ بشاشةُ الوجهِ المليحِ »

فقال أولَ ما قال : أقْوَى . وكان فى المجلس « أبو سعيد السيرافى » فقال : يجوز أن يكون قال :

« وزالَ بشاشةَ الوجهُ المليحُ »

بنصب « بشاشة » على التمييز ، وبحذفِ التنوين لالتقاء الساكنين ...

– قلت : هذا الوجه الذى قاله « أبو سعيد » ، شرٌّ من إقواءِ عشرَ مراتٍ فى القصيدة الواحدة .

آدم : أعزِزْ علىَّ بكم معشرَ أُبَيْنِىَّ[1] إنكم فى الضلالة مُتَهوِّكون ، آليتُ ما نطقتُ هذا النظيمَ ولا نُطِقَ فى عصرى ، وإنما بنظمه بعض الفارغين ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ! كذبتم على خالقكم وربِّكم ، ثم على آدم أبيكم ، ثم على حواءَ أمِّكم . وكذب بعضُكم على بعض ، ومآلكم فى ذلك إلى الأرض .

(٣٦٠ – ٣٦٤) .

---

(١) تصغير : أبنائى .

مشهد

فى روضة الحيَّات

يستأنف ابن القارح سيره ، ويضرب سائرا فى الفردوس ، فإذا هو بروضةٍ فيها حيَّات ، يعجب لوجودها فى الجنة . فتنطق إحداها وتقول إنها الحية « ذات الصفا » التى حكى النابغة الذبيانى قصتها فى شعره — وتنشد القصيدة — وإذا حيَّة أخرى فقيهة بالعربية ، عالمة بالقراءات ، كانت تسكن فى بيت « الحسن البصرى » ، فتسمعه يتلو القرآن ليلاً ، فحفظته كله منه . فلما مات انتقلتْ إلى جدار فى دار « أبى عمرو بن العلاء » فرغبتْ عن حروف من قراءة « الحسن البصرى » ، ثم انتقلت إلى الكوفة فأقامتْ فى جوار « حمزة بن حبيب » فسمعته يقرأ بأشياء ينكرها عليه أصحاب العربية .

وتدعوه هذه الحية — بعد حوار طويل فى القراءات — إلى الإقامة معها ، وتغريه بأنها سوف تمتعه . فيُذعر منها ، وينطلق فى غيطان الجنة .

(٣٦٤ — ٣٧٢) .

مشهد

فى جنةِ الرُّجَّز

[أبو العلاء ، ممهدا] :

ويمر بأبيات ليس لها سموقُ أبيات الجنة . فيسأل عنها فيقال : هذه جنة الرجز ، يكون فيها « أغلب بني عجل ، والعجاج ، ورؤبة ، وأبو النجم ، وحميد الأرقط ، وعُذافِر بن أوس ، وأبو نُخيلة » وكل من غُفِر له من الرجاز .

ابن القارح ، لهم جميعا : تبارك العزيز الوهاب . لقد صدق الحديث المروى : « إن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها » .

وإن الرجز لمن سفسافِ القريض . قصَّرتم أيها النفر فقُصِّر بكم . ثم يقول لرؤبة ، وقد عرض له :

ثم لرؤبة : يا أبا الجحاف ، مـا كان أكلفك بقوافٍ ليست بالمعجبـة : تصنع رجزًا على الغين ، ورجزًا على الطـاء ، وعلى الظـاء ، وعلى غير ذلك من الحـروف النافرة ، ولم تكن صاحب مثلٍ مذكور ، ولا لفظٍ يُستحسن عذب .

رؤبة ، مغضبا : إلىَّ تقول هذا ، وعنى أخذ « الخليلُ » وكذلك « أبو عمرو بن العلاء » وقد غبرتَ فى الدار السالفة تفتخر باللفظة تقع إليك مما نقله أولئك — الرواة — عنى وعن أشباهى ؟ .

ابن القارح : لوْ سُبِك رجزُك ورجَز أبيك — العجاج — لم تخرج منه قصيدة مستحسَنة . ولقد بلغنى أن « أبا مسلم » كلَّمك بكلامٍ فيه « ابنُ ثَأداء » — أى أمَة — فلم تعرفها حتى سألت عنها بالحىِّ . ولقد كنت تأخذ جوائز الملوك بغير استحقاق . وإن غيرك أولى بالأعطية والصلات .

رؤبة : أليس رئيسكم فى القديم والذى رجعتْ إليه المقاييس ، كان يستشهد بقولى ويَجعلنى له كالإمام ؟ .

ابن القارح : لا فخر لك أن استُشهِد بكلامك ، فقد وجدناهم يستشهدون بكلام أمَة وكعاء وكم روى النحاة عن طفل ماله فى الأدب من كفل .

رؤبة : أجئت لخصامنا فى هذا المنزل ؟ فامض لطيَّتك ، فقد أخذتَ بكلامنا ما شاء الله .

ابن القارح : أقسمتُ ما يصلح كلامكم للثناء ، ولا يفضُل عن الهِناء — أى القطران —

تصكون مسامع الممتدح بالجندل ، وإنما يطرب إلى المندل . ومتى خرجتم عن صفةِ جمل ترثون له من طولِ العمل ، إلى صفة فرسٍ سابح ، أو كلبٍ للقنص نابح ، فإنكم غير الراشدين .

روؤبة : إن الله سبحانه قال : ﴿يتنازعون فيها كأسًا لا لغوٌ فيها ولا تأثيم﴾[1] ، وإن كلامك لِمن اللغو .

« فإذا طالت المخاطبة بينه وبين روؤبة ، سمع « العجَّاجُ » فجاء يسأل المحاجزةَ بينهما » .

(٣٧٣ - ٣٧٦) .

* * *

(١) سورة الطور الآية ٢٣ .

المشهد الختامى
العودة إلى الفردوس

[أبو العلاء : يختم الرحلة] :

ويذكر ، أذكره الله بالصالحات ، ما كان يلحق أخا الندام من فتور فى الجسد من المدام ، فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن ينزف له لُبٌّ . فإذا هو يخال فى العظام دبيبَ نملٍ ، فيترنم بقول « إياس بن الأرَتّ » :

أعاذلَ لـــو شَربتِ الخمر حتى يظـــل لكـــل أنْمُلَةٍ دبيبُ
إذن لعـــذرتنى وعلمـتِ أنـى لمـا أنفقت من مـــالى مصيبُ

ويتكىء على مفرش من السندس ، ويأمر الحوار العين أن يحملن ذلك المفرش فيضعنه على سرير من سرر أهل الجنة ، وإنما هو زبرجد أو عسجد ... فيُحمل على تلك الحال إلى محله المشيد بدار الخلود ، فكلما مرَّ بشجرة نضحتْه أغصانها بماء الورد ، قد خلِط بماء الكافور ، وبمسكٍ ما جُنِيَ من دماء الفور ، بل هو بتقدير الله الكريم . وتناديه الثمرات من كل أوب ، وهو مستلق على الظهر : هل لك يا أبا الحسن هل لك ؟ فإذا أراد عنقودًا من العنب أو غيره ، انقضب من الشجرة بمشيئة الله وحملتْه القدرة إلى فيه[1] ، وأهلُ الجنة يلقونه بأصناف التحية . ﴿وآخرُ دعواهم أن الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾ .

ولا يزال كذلك أبدًا سرمدًا ، ناعمًا فى الوقت المتطاول منعَّما .

(٣٧٧ - ٣٧٩) ٠غفران

* * *

(١) بمثل هذا أو قريب منه ، تأول عدد من المفسرين آية الحاقة : ﴿فى جنة عالية . قطوفها دانية ﴾ وآية الدهر :﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا﴾ .

يرخى الستار ، ثم يرفع على مشهد أبى العلاء فى مجلسه المهيب على حصير بداره المتواضعة بمعرة النعمان من أعمال حلب ، ومن حوله أصحابه وتلاميذه يصغون إليه وهو يُملى عليهم ردّه على ماجاء فى رسالة ابن القارح جملة جملة وفقرة فقرة ، بعد أن طاف به فى رحلته إلى العالم الآخر كما تمثله ومثّله : مُشخصًا فى رسالة الغفران ، قبل أن يبدأ فى الرد على ما جاء فى رسالة ابن القارح .

* * *

خاتمة

وبعدُ ، فلست بحيث أتصور ، أن أبا العلاء نفسه قد اتجه بالغفران إلى قصدِ العرض التمثيلى ، أو خطر له على بالٍ إمكانُ إخراج قصته على المسرح الذى لم يكن لعصره ولا بيئته عهدٌ به ، فيما نعلم .

وقد أرى أن الغفران لا تصلح للعرض على مسرح اليوم ، بموضوعها الدقيق ، ومادتها الصعبة التى لا يستوعبها غيرُ الخاصةِ من دارسى علوم العربية والإسلام ، وبُعقدتها الرمزية فى المعادلة الشاقة بين صوفية أبى العلاء وشهوانية ابن القارح ، وفى المأزق الحرج الذى يصور فيه أبو العلاء عالَمه الآخر ، وهو يتقى مظِنة التباسه بالحياة الآخرة فى عقيدتنا الدينية .

ثم إنى لا أرتاح إطلاقًا ، إلى تحميل نص رسالة الغفران مالا يحتمله من مفهومنا للفن المسرحى . وإنما الذى يعنينى منها – كما قلتُ فى تقديمها – هو أن أضع فى تاريخنا الأدبى هذه الذخيرة لمحاولة فنية رائدة ، وأن أعترف بما غاب عنى حين درستُ رسالة الغفران منذ عشرين عامًا ، فلم يلفتنى منها سوى « التشخيص » من حيث هو ظاهرة أسلوبية لأبى العلاء فيها ، ثم حين راجعتُها فى محاضراتى الجامعية ، بمصر والسودان ، فوقفتُ أمام لغز مقدمتها الثعبانية الموشحة بالسواد ، ولمحت من بعيد ، سمات هذا النص المسرحى فيها .

وما أرانى بهذه الإضافة الجديدة قد قلت الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، بل أوقن أن الأجيال بعدنا سوف تعيد النظر فيما قدَّمنا من دراسات ، وتقول فيها كلمتها : إضافة أو تعديلا وتصحيحًا ، أو رفضًا ونسخًا .

وصدقت آية الله فينا : ﴿وما أوتيتُم من العلم إلا قليلا﴾[1] .

صدق الله العظيم .

---

(١) سورة الاسراء الآية ٨٥ .